الفصل الخامس

الإلـــه

- وجود الله
- التوحيد
- التوحيد بداية ونهاية
- التوحيد الوهمى
- المسألة الإخناتونية
- التوحيد الخالص
- آثار التوحيد القرآنى

obeikandl.com

obeikandl.com

وجود الله

يمكن أن نقرر بثقة أن البشر في مجملهم والإنسانية عامة ، إلا شواذًا لا يعتد بهم ، لم يختلفوا في وجود الله عز وجل ، أو بدقة أكثر لم يختلفوا في أن وجود الإله الذي يُعبد حق لا يحتاج إلى دليل وحقيقة يعرفها كل إنسان في نفسه .

وما غيره الإسلام في هذه الحقيقة ومنَّ به على الإنسانية فيها ليس في تقرير وجودها في حد ذاته ، وإنما هو في الصورة التي وضعها فيها والموضع الذي جعله لها في النفس الإنسانية .

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾

(الروم: ٣٠)

فبوأ القرآن وجود الإله من النفس الإنسانية موضع الأصل الذي خلقت عليه ، وأنزله منزلة الحقيقة الراسخة المستقرة في أعماق الإنسان .

فلم تعد الألوهية والإيمان بوجود إله مسألة خارجة عن ذات الإنسان ، ويعتمد إحساسه بها ومعرفته لها على مؤثرات ومؤشرات قادمة له من خارج تكوينه وأصل خلقته ، وهو ما تتفق فيه الأديان خلا الإسلام والأساليب غير القرآنية مع الملاحدة .

فالألوهية عند الأولين حقيقة وعند الآخرين ظاهرة اخترعها عقل الإنسان ، ثم يتفق هؤلاء وأولئك في أن معرفة النفس الإنسانية بوجود إله خالق وإيقانها أنها تخضع له إنما هو ناشئ من مؤثرات خارج نفسه .

فالملاحدة يفسرون إيقان الإنسان أو معرفته أو إحساسه بضرورة وجود إله يعود إليه ويستعين به بـ : «**ضعف الإنسان بين مظاهر الكون وأعدائه فيه من**

القوى الطبيعية والأحياء ، فلا غنى له عن سند يبتدعه ابتداعًا ليستشعر الطمأنينة بالتعويل عليه والتوجه إليه بالصلاة»[1].

وأما المؤمنون بوجود الإله فى غير المنهج القرآني وأسلوبه فإنهم يجعلون وجود الإله حقيقة ، لكنها حقيقة خارجة عن تكوين الإنسان ويعتمد إيمانه بها على إقناعه وتعريفه بها بالبراهين العقلية والأدلة المنطقية .

وهذه هي إعادة صياغة المنهج القرآني لحقيقة الوجود الإلهي ، فوجود الله عز وجل ليس قضية خارجة عن ذات الإنسان ، لا يعرفها ولا يهتدي إليها إلا بأدلة وإشارات صادرة من خارج نفسه فإن لم توجد هذه الأدلة فُقدت حقيقة الوجود الإلهي في نفسه .

وجود الله عز وجل في المنهج القرآنى حقيقة موجودة راسخة مستقرة في نفس الإنسان ، أو هي جزء من ماهية الإنسان مكنون فيه ، وإنكارها يستدعي قبل إثباتها العجب من منكرها لأنه شذوذ عما هو مستقر في نفس الإنسانية وانحراف بها عن أصلها .

﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ (إبراهيم: ١٠)

والسؤال هنا : إذا كانت حقيقة الوجود الإلهي جزءًا من ماهية الإنسان ومكونًا من مكوناته ، فما معنى الاستدلال والتدليل القرآني على وجود الله عز وجل؟

ونقول : معناه أن الألوهية كنز مستقر في النفس وجزء أصيل منها ، وما وظيفة الدلائل والبراهين إلا استخراجها من ثنايا النفس واللا وعي إلى منطقة الوعي والإدراك ، أو من منطقة الجمود والسكون في النفس إلى حيز الفعل والحركة ومنطقة الدفع فيها ، لتوضع في الموضع الذي تؤثر به في النفس وتحركها وتصير قوة فاعلة فيها ، فالأدلة والبراهين هي مجرد إزالة لغشاء الكفر(●) عن الحقيقة المكنونة في النفس .

---

(١) الأستاذ عباس محمود العقاد ، الله ، ص ١٢ .

(●) لاحظ أن معاني الكفر كلها تدور حول أصل واحد هو ستر الشيء وحجبه .

وقد يقال : هذه سفسطة ، فهب الأمر كان هكذا أو كذلك ، فما الفرق؟

ونقول : فرق كبير هائل بين أن تكون الحقيقة موجودة في النفس مكونة لها مستقرة فيها والأدلة والبراهين تزيل الغشاوة وتستخرجها ، وبين أن تكون الحقيقة معدومة في النفس والأدلة والبراهين توجدها وتنشؤها .

ويكون الرد : فلتكن الألوهية حقيقة مستقرة في النفس تستخرجها الأدلة أو فلتكن معدومة تنشؤها وتوجدها ، الأمران سواء ، فإذا أقر الإنسان بالألوهية ، موجودة واستخرجت أو معدومة وأوجدت ، كان مؤمنًا ، وإذا لم يقر بها وأطاح بالأدلة كان كافرًا ، واستوى في أمره أن تكون حقيقة الألوهية في نفسه أو أتت بها البراهين من خارجه .

ونقول : ها قد وصلنا إلى المراد ، وهو أثر هذه النقلة الحضارية التي أتى بها المنهج القرآني في فهم النفس الإنسانية ، عبر تفسير معنى الألوهية وبيان موضعها من نفس الإنسان ومكانها من وجوده وأثرها في أفعاله وأثر طمسها في كينونته وحركته .

إذا كانت حقيقة الألوهية معدومة في النفس لا تعرفها إلا من خارجها ولا يوجد لها أثر في تكوينها وماهيتها ، فإذا لم تأت لها الأدلة والبراهين لتعرفها بها ما وُجدت في نفس الإنسان ، كما يفسر الملحدون نشأة ما يسمونه : ظاهرة الألوهية ، لو كانت حقيقة الألوهية كذلك لكان عدم الإيمان بها أو عدم معرفتها أصلاً مجرد إلحاد فقط لا أثر له في نفس الإنسان ولا فى حياته عند الملحدين ، وأثره على الإنسان محصور في ما بعد الموت وما سيلقاه فيه من عقاب عند أهل الدين غير القرآني ، ولا أثر له في دنياه وحياته ومعاشه وسلوكه ، وأهم من ذلك كله لا أثر له في نفسه هو .

وحينئذ فإن تبني بعض المجتمعات للإلحاد وإنكار الألوهية ، أو قيام نظريات تجعل دعاماتها وسداها ولُحمتها تنشئة الأجيال التي تحكمها على أن الإله ظاهرة مخترعة لا وجود لها في الحقيقة ، يمكن أن ينشئ أفرادًا أصحاء

ونفوسًا سوية ومجتمعات راسخة قوية ومنجزات وثمار حياتية وسعادة دنيوية ، وإن كانت العاقبة والمآل هي الخسران والعذاب الأخروي الذى يؤمن به المتدينون وينكره الملحدون .

ونوجز فنقول : إن كون الألوهية ، حقيقة كانت أو ظاهرة ، أمرًا خارج النفس تنشؤه وتوجده الأدلة والبراهين يجعل عدم الإيمان بالوجود الإلهي لا أثر له في الدنيا والحياة ، ولا على نفس الإنسان وحركته ، ولا على المجتمع وتكوينه وسيرته ، وتصير العاقبة كلها متعلقة بما بعد الموت ، وفي قناعة المؤمن فقط .

أما أن تكون الألوهية حقيقة ، ولكنها ليست حقيقة فقط كما وقف عند هذا الحد المُقِرون بالألوهية ، بل حقيقة موجودة مستقرة في النفس وجزءًا من ماهية الإنسان وفطرته وأصل خلقه ، فهذا هو الذي أتى به القرآن ليجعل الألوهية والإيمان بها فطرة فوق مرتبة الحقيقة تصل إلى البداهة والقضية التى لا يكون الإنسان إنسانًا إلا بها :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ﴾ (الأعراف:١٧٢).

ذلكم هو الفتح في عالم البشرية وهو المحل الرفيع الذي أنزله القرآن لقضية الألوهية من النفس الإنسانية ، هو إعادة تفسير المنهج القرآني لوجود الله عز وجل وموضعه من النفس الإنسانية بما يجعل الإيمان بوجود الله عز وجل حقيقة لا تعتمد معرفة النفس بها على الأدلة والبراهين فقط .

والأهم أنه يجعل سلب هذه الحقيقة من النفس وطمسها فيها ليس فقط حسابًا عسيرًا وعذابًا أليمًا مؤجلاً إلى ما بعد الموت ، ولكنه أيضًا وخيم العقابيل عاجلاً في الدنيا ومسيرة الحياة وسلوك البشر .

فإذا كانت الألوهية والإيمان بها جزءًا من النفس وحقيقة فيها مكونة لماهيتها ، فإن إنكارها مؤد لا محالة إلى حيرة الإنسان وقلقه وتمزق نفسه

بفقدانها لجزء منها ووشيجة من وشائجها لا قرار للإنسان ولا راحة ولا طمأنينة إلا بها .

﴿ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ ﴾ (الأنعام: ٧١)

﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ (التغابن: ١١)

فالإنسان دون الإيمان بوجود الإله والقوة الخالقة المدبرة فاقد لمكون من مكوناته ولجزء من هويته وماهيته ، فهو حائر قلق لا يقر له قرار في الدنيا قبل أن يحاسب في الآخرة .

وإذا كان الإنسان يرى الكون والبشر والحياة من خلال نفسه ، فتربيته على نزع الإيمان بالألوهية من نفسه أو إفقاد الألوهية لمعناها ومحتواها يعني فقدانه جزءًا من تكوينه وماهيته يرى الوجود به ويتعامل مع الكون والبشر من خلاله، فلا معنى حينئذ للخلل الذي أصابه في تكوينه إلا إفضائه إلى خلل في التعامل مع كل ما يحيط به وإفساده له .

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا ﴾ (الإسراء: ١٦)

فوجود الله عز وجل في منهج القرآن فطرة في داخل الإنسان مع كونها حقيقة ، وأثر وجودها أو نزعها حال على الإنسان في نفسه وطمأنينته وفي مجتمعه ومسيرته وفي كونه وموقفه منه .

ففهم هذه الحقيقة ، الوجود الإلهي ، الفهم الصحيح لها كما صاغه القرآن وتصحيح وضعها بإعادتها إلى موضعها الحقيقي الأصيل من النفس الإنسانية هائل الآثار على الكون والحياة وعلى الإنسان نفسه .

تفرد الأدلة القرآنية

بعد وضع المنهج القرآني لحقيقة الألوهية في موضعها من النفس الإنسانية كمكون لها مستقر فيها ، كان الفتح الآخر للمنهج القرآني والنقلة التي جاء بها هي كيفية إزالة الغشاوة من أمام هذه الحقيقة واستخراجها من ثنايا النفس ومنطقة السكون فيها إلى موضعها الذي تؤثر به في النفس وتحركها .

فقبل المنهج القرآني وبعده لم يكن الاستدلال على وجود الله عز وجل إلا أمرًا من اثنين ، إما قضية تلقينية جامدة تلقى إلى الإنسان على أنها حقيقة من خارج نفسه ، فهي لا تخاطب فيه عقلاً ولا تحرك نفسًا ولا تلمس فيها شيئًا فتثيرها وتأسرها وتعرف أنها الحقيقة بمطابقتها لما فيها ، وإنما هي معلومة تلقى كغيرها من المعلومات تفتقد الحيوية والقدرة على تحريك الإنسان أو إقناعه ، فضلاً عن إعادة تكوينه بها ، فهي بالضبط كمعلومة تذاع في أخبار الإذاعة أو تنشر في صحيفة عن وجود جبال على المريخ مثلا ! ، وأثرها لا يتعدى أثر هذه المعلومة في نفس من يسمعها .

« ١٥ وَقَالَ اللهُ أَيْضًا لِمُوسَى : «هكَذَا تَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ : يَهْوَهْ إِلهُ آبَائِكُمْ ، إِلهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِلهُ إِسْحَاقَ وَإِلهُ يَعْقُوبَ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ . هذَا اسْمِي إِلَى الأَبَدِ وَهذَا ذِكْرِي إِلَى دَوْرٍ فَدَوْرٍ»[1].

وإما قضية تخضع للاستدلال البرهاني الجاف الذي لا يؤثر في نفس ، ولا يثير حياة ولا حركة في صاحبه ، ولا يستطيع فهمه واستيعابه ابتداءً أغلب البشر ، وإنما يقوله ويتحاور فيه ويلقيه ويأخذه قلة ضئيلة منهم ، هم الفلاسفة أصحاب النظر العقلي المحض .

وهؤلاء قد يثبتون قضية ولكنهم لا يستطيعون تحويلها بأساليبهم إلى عقيدة مستكنة في نفوس البشر فاعلة في حركتهم وآثارهم ، بل تظل معزولة في أذهانهم هم ، لا تخرج عن جدران قوالبهم ، فإذا استطاعوا نقلها إلى العقل فلا يملكون الوصول بها إلى النفس أو إلى المنطقة الفاعلة فيها لتصير مصدر طاقة ومعين حياة للنفس الإنسانية ، ودفعة رقي وتماسك للمجتمع البشري .

وأكثر من ذلك ، ربما لم يستطيعوا الوصول بها ، وهم أصحابها ، إلى منطقة الفعل والحركة في نفوسهم هم ، فالشيخ الرئيس ابن سينا صاحب

---

(١) خروج : (٣ : ١٥)

القانون في الطب قضت عليه التخمة والشره ، وعاش وهو الحكيم عقلاً حياة لا أثر للحكمة فيها ، فلم ينتفع لا بطبه ولا بحكمته!!

إذًا فضل المنهج القرآني في مسألة الألوهية ووجود الإله ، بعد تحويلها من مجرد حقيقة إلى مكون من مكونات الإنسان وجزء من ماهيته وفطرة في وجوده وأصل خلقه ، هو في طريقة عرض هذه الحقيقة والأسلوب الذي جاء به لإماطة اللثام عنها واستخراجها من مكنونها في نفس الإنسان وباطنه إلى منطقة وعيه وإدراكه لتصير قوة فاعلة ومحركة له ، وفي كيف استطاع بأدلته الوصول إلى المنطقة المؤثرة في الإنسان .

وقد يقال : وهل إيجاد أسلوب أو طريقة عرض واستدلال ، وإن كانت غير مسبوقة ، يعد فتحًا ونقلة في مسيرة الإنسانية حتى يعطى مثل هذا الحجم ويصير جزءًا من المنهج القرآني المتكامل للوجود؟ .

ونقول : نعم ، نعم .

فالحقيقة ليست هي فقط ، لكنها هي وطريقة عرضها والأسلوب الذي يحملها، واختلاف طريقة العرض ووسائل الاستدلال هي مظاهر لاختلاف رؤية هذه الحقيقة والقدرة على الإحاطة بها والتعامل معها وتقدير موقعها من الإنسان .

فاختلاف أسلوب نقل الحقيقة ، أي حقيقة ، وطريقة توصيلها للإنسان ثماره هي اختلاف الدرجة التي تصل بها هذه الحقيقة إلى الإنسان ، والقدر الذى تستقر به في أعماقه ، واختلاف تصوره وفهمه لهذه الحقيقة بعد وصولها إليه واستيعابه لكل أركانها وما تعنيه .

ذلك أن : «**طريقة الأداء حاسمة في تصوير المعنى ، وأنه حيثما اختلفت طريقتان للتعبير عن المعنى الواحد اختلفت صورتا هذا المعنى في النفس والذهن**»[1].

---

(١) الأستاذ سيد قطب : التصوير الفني في القرآن ، ص ١٩٤ .

لذلك نقول : أسلوب عرض قضية الألوهية وطريقة الاستدلال عليها هو جزء منها حاسم في تقرير مدى قدرة الاستدلال على الوصول للنفس واستخراج الحقيقة الكامنة فيها ، وإزاحة الحجب من أمامها ، وتحريكها في النفس وتحريك النفس بها .

الفتح في منهج العرض والاستدلال القرآني هو مخاطبة الإنسان في منطقة الطاقة داخله ، أو المنطقة التي توجد فيها الحقيقة مستقرة في أعماقه وتحتاج إلى لمسة تهزها وتحركها .

فإذا كانت علة الفلاسفة هي تعاملهم مع الألوهية كحقيقة خارج النفس ، مما جعلهم يدورون حولها هي ويحاولون التدليل عليها ووضع القوالب للوصول إلى عقل الإنسان بها ، في غفلة عن المنطقة المؤثرة في الإنسان التي لا تحتاج لكل هذه القوالب لإثبات الوجود الإلهي وهي حقيقة مستقرة فيها وجزء منها ، فإن القرآن إذ جعل الألوهية فطرة في النفس فإنه خاطب أولاً وقبل أي شيء آخر هذه الفطرة مباشرة ، وكان منهجه هو لمس منطقة البداهة في الإنسان وإثارة الجزء من ماهيته والمكون من مكوناته الموجود في أعماقه المجبول عليه في أصل خلقه .

﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ (الطور:٣٥،٣٦)

وكانت إثارة هذه الفطرة ومخاطبة البداهة وأصل الخلق بالتنبيه المباشر إلى حقائق الكون ، فكأن القرآن حين يعرضها يقول للإنسان : إنها ليست هي التي تراها كل يوم، انظر إليها ببصر طفل يراها لأول مرة ، تعرف عليها من جديد ، تحسسها كما يتحسس الطفل عالمه حين يقدم إلى الوجود .

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾

(الغاشية:١٧-٢٠)

وإثارة للبداهة تقوم على وضع حقائق الكون في صورة جديدة لم يألفها الإنسان من قبل ، ولم ينشئ اعتياده عليها حجابًا من الغفلة على فطرته وبديهته ، صورة حية تخرج الكون أمامه عن جموده وسكونه ، صورة متدفقة تموج بالحركة لترى النفس كل شيء اعتادت عليه في صورته الجديدة وكأنها تراه لأول مرة .

﴿ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ (التكوير:١٨)

﴿ وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍ ﴾ (النمل:٨٨)

وإثارة للبداهة والفطرة وإزالة لغشاوة الغفلة وساتر الاعتياد عن الحقيقة المستكنة في النفس بسلب النعم والموجودات من أمام الإنسان ليرى كيف يكون من غيرها .

فلا يشعر الإنسان بأهمية شيء وإن كان بديهة لا تحتاج إلى تأمل إلا عند شعوره بنقصه أو إحساسه بفقده .

وأبين مثال على ذلك هو الهواء ، يتنفس المرء به ، وبه يعيش ويعمل كل عضو وجزء فيه ، ولكنه من اعتياده عليه لا يوليه من عقله ونفسه اهتمامًا وما يشعر به وبحاجته إليه إلا حين ينقص نقصًا يهدد حياته بالفناء .

﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ ﴾ (القصص:٧١)

﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ ﴾ (القصص:٧٢)

﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۢ ﴾ (الملك:٣٠)

وإعجاز المنهج القرآني في أسلوبه والفتح الذي أتى به ليس في مخاطبته لمنطقة البداهة وأصل الخلق في الإنسان فقط ، وإنما النقلة الكبرى لاستخراج

الألوهية من النفس هي أن أدلة القرآن وأسلوبه المعجز يخاطب الإنسان كُلاً كاملاً ، وأنه يثير حقيقة الألوهية في نفسه المستقرة فيها من كل وسائل إدراكه وسبل التأثير فيه .

فالمنهج القرآني في العرض والاستدلال لا يتعامل مع الإنسان كعقل فقط يخاطبه وحده ثم يترك نفسه في حيرة واضطراب ، والإنسان في القرآن ليس بداهة ونفسًا فقط ، فهو يخاطب فطرته ونفسه ، وعقله في شك مستريب ، بل القرآن يخاطب الإنسان بكل ما فيه من الإنسان ، وبكل ما يكونه ويجعله في نطاق الإنسان ، نفسًا وبداهة وعقلاً وحواسًا ووجدانًا .

ولأن الإنسان كل واحد لا يتجزأ ولا ينفصل فيه عقله عن نفسه ، ولا فاصل بين حواسه ووجدانه ، وإنما هي كلها مزيج واحد هو الإنسان ، فالقرآن يخاطب مكونات الإنسان كلها في العبارة الواحدة والآية الواحدة .

وهو بذلك يؤكد شمول حقيقة الألوهية للإنسان بكل أجزائه ومكوناته ، فكأن القرآن يستوعب في الدليل الواحد الإنسانية كلها ووسائل المعرفة كلها .

فنقلة القرآن الكبرى هي أنه في منهجه ما هو مستقر في الفطرة لا يخالف ما يطمئن العقل إليه ، بل يتوحد معه ، فما يستريح إليه العقل هو الموجود في الفطرة ، وما هو مستقر فيها هو ما يرضيه في الوقت نفسه ، وهما معًا ماتدركه حواسه مما حولها من مظاهر .

وإذا كان الناس ، كما يقول ابن رشد : «**متفاضلون في طرق الإقناع والتصديق على ثلاثة أصناف ، الصنف الأول : وهم الجمهور الذي يصدق بالأقاويل الخطابية ، والصنف الثاني : وهم أهل التأويل الجدلي الذين يصدقون بالأقاويل الجدلية ، والصنف الثالث : هم أهل التأويل اليقيني الذين لا يؤمنون إلا بالبرهان**»[1].

---

(١) ابن رشد : فصل المقال في ما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ، ص ٣١ ، ٥٨ .

فإن المنهج القرآني يخاطب هذه الأصناف جميعها وغيرها مما لا يدخل في هذا التصنيف بالأسلوب الواحد والدليل الواحد ليقول لنا : إن العقل والفطرة والحواس والوجدان والنفس هي روافد متآزرة لنهر واحد ، أو هي أفنان تبدو متفرقة ولكنها تلتقي فى أصل واحد ، هو الإنسان .

فأسلوب القرآن يثير العقل ، والعقل يقول : لابد لكل مخلوق من خالق ولكل موجود من موجد،ومن سمات العقل البحث عن أسباب الأشياء وعللها، وفقدان الأشياء والموجودات لعلل وجودها ومسبباتها يُفقد العقل الترابط ويسكب في النفس التشتت والحيرة .

فوجود المخلوقات يستلزم في العقل وجود خالق لهم ، وهذا هو ما يسمى بدليل الخلق أو الحدوث أو الإيجاد .

وهذا الخالق والموجد لابد أن يتصف بالكمال وطلاقة القدرة التي يفارق بها مخلوقاته وما أوجده ، وإلا كان مخلوقا مثلها ، وهذا هو دليل الكمال .

وهذا الخالق الذي يتصف بالكمال وطلاقة القدرة لابد أن تكون قدرته وكماله بالقدر الأسمى الذي يكون كافيًا لإيجاد الموجودات ثم الهيمنة والسيطرة عليها ، وهذا هو دليل العلة الكافية .

وقد جمع القرآن ذلك كله وأتى به في الآية هي هي التي خاطب بها الفطرة والبداهة وأمثالها : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ (الطور:٣٥،٣٦)

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل:١٧)

فجمع القرآن بذلك بين الفطرة وبداهتها وبين العقل وطلب البرهان في آن واحد .

ومن إعجاز القرآن وإحكام المنهج القرآني واستيعابه لمكونات الإنسان ولطبيعته ولأنه مزيج واحد من كل وسائل إدراكه ، ومن فرائده في بيان حقيقة الألوهية كمكنون داخلي في الإنسان يصبغ كل أجزائه وتعرفه كل أبعاضه ،

مخاطبة الإنسان بحقيقة الألوهية واستثارتها من مكامن نفسه من خلال حواسه ، وهي مصادر المعرفة الأولى للإنسان ووسيلته الأولى في إدراك الأشياء حوله والتعرف عليها .

والحواس هي المدخل والمكون الإنساني الذي أهمله فلاسفة البراهين العقلية المحض واستعلوا عليه استعلاء أخل بمناهجهم وقدرتها على التأثير في البشر والوصول بالحقائق إلى نفوسهم .

فالقرآن يستخرج حقيقة الوجود الإلهي من نفس الإنسان بمخاطبة حواسه وشحذها وتنبيهها إلى الكون لرؤية ما فيه .

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ (ق:٦،٧)

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۝٣٧ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٣٨ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۝٣٩ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (يس:٣٧-٤٠)

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝٢٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ﴾ (فاطر:٢٧،٢٨)

ففي هذه الآيات يحرك القرآن حقيقة الوجود الإلهي في ماهية الإنسان عن طريق حواسه ، وهي وسائل معرفته الأولى والدائمة والمشتركة بين كل بني الإنسان ، ويجعل حواس الإنسان ورؤيته البصرية ، وانتبه إلى أن الآية الأخيرة جعلت دليلها مجرد التنوع اللوني فهي آية لونية ودليل بصري خالص ، يجعل القرآن حواس الإنسان وإدراكه لما حوله بها منفذاً إليه ودليلاً على وجود حقيقة الألوهية في نفسه ، بما يعني أن حقيقة الوجود الإلهي تشمل الإنسان ، كل الإنسان حتى حواسه .

ثم والقرآن يخاطب الحواس وينبهها ويحركها لتتصل بمكامن النفس وتحرك حقيقة الألوهية فيها، هو يخاطب في الوقت نفسه بداهة الإنسان وفطرته التي تعرف الحقيقة بمجرد وقوعها عليها بمطابقتها لما هو مستقر فيها .

وفي الوقت ذاته الآيات تقول : السماء محكمة مبنية مرفوعة بغير عمد ، وأفلاكها تسير في إحكام ونظام لا يختل ، وكل شيء في الكون محكم دقيق في سيره ، ولو حاد عن قانونه ونظامه قيد شعره لاختل الكون كله وأصابه الفساد والدمار ، فلابد لهذا النظام والإحكام الدقيق من منظم يقوم عليه ويُسيِّره بعنايته وأمره ، وهذا هو دليل النظام والعناية العقلي المحض في الاستدلال على الوجود الإلهي .

فجمع القرآن بذلك بين الفطرة والحواس والعقل ، وخاطب الإنسان بها كلها ونفذ إليه منها جميعًا في آن واحد .

وما نريد أن نصل إليه هو أن المنهج القرآني نقل قضية الوجود الإلهي نقلة تقاس بآلاف السنين حين جعلها قضية متعلقة بالوجود الإنساني وبماهية الإنسان وجعل كينونة الإنسان معلقة بالإيقان بالوجود الإلهي .

وأيضًا حين جعل معرفتها واستقرارها في النفس متعلقًا بوسائل إدراك الإنسان كلها ، فليست هي قضية عقل خالص بمعزل عن النفس وفطرتها ، ولا هي بقضية نفس وبداهة لا سبيل لعقل الإنسان إلى إدراكها ، ولا هي قضية عقل ونفس تعلو على حواس الإنسان أن تدركها أو هي ليست مهمتها أو من وظائفها .

وإنما علق القرآن قضية الوجود الإلهي بالعقل والنفس والحواس ووحد بينها جميعًا في إدراكها واستقرارها ، فكل وسائل إدراك الإنسان مختصة فاعلة في إدراك حقيقة الألوهية ، وكلها تلتقي معًا في هذا الإدراك ، والوجود الإلهي نفسه وإدراكه هو أحد وسائل توحيد وسائل المعرفة وتنظيمها والربط بينها وتحقيق وحدة الإنسان نفسه .

فكأن عرض القرآن لحقيقة الألوهية ولقضية الوجود الإلهي وإشارته إلى تعلقها بجميع وسائل المعرفة ، هو في الوقت نفسه أحد طرق بيان وسائل المعرفة وتنظيمها وإعادة التجانس بينها .

ما أحضره القرآن للإنسانية هو : الوجود الإلهي قضية مكونة للنفس الإنسانية ، وقرار هذه النفس الإنسانية وطمأنينتها متعلقة بمعرفة الوجود الإلهي والإيمان به ، وافتقاد النفس للوجود الإلهي هو افتقاد لجزء أصيل منها ، مآله الحيرة والقلق والتمزق والاضطراب على مستوى الفرد ، والخلل في التعامل مع البشر والكون على مستوى الاجتماع البشري .

والوجود الإلهي لأنه جزء من ماهية الإنسان وتكوينه ، فإدراكه هو بكل ما يكون به الإنسان إنسانًا ، الحواس والعقل والنفس والوجدان والفطرة والبداهة ، وكلها تلتقي معًا وتتوحد أفنانها في أصل واحد ولا يطغى منفذ إلى الحقيقة منها على منفذ ، ولا يغني أحدها عن الآخر ، والاستغناء بأحدها أو الاستقلال به جموح وانحراف في تنظيم العلاقة بينها ، وإفساد لمعنى قضية الوجود الإلهي ولحقيقة الألوهية وموضعها من كينونة الإنسان .

* * *

التوحيد

التوحيد هو قضية المنهج القرآني الكبرى ، إذ هو قاعدة المنهج الذي جاء به الإسلام ، وهو الرابط الذي أعادت به المنظومة القرآنية تفسير الوجود وغيرت معناه أمام الإنسان ، وهو السيال الذي يتدفق في كل وحدات النموذج الإسلامي ويطبعها بطابعه ، وتعود إليه كل جزئية في المنهج لتصطبغ به وتنضبط بأثره .

فحقيقة التوحيد : «**امتدت إلى تصور المسلم للكون كله وتصوره لحقيقة القوة الفاعلة فيه وتصوره لحقيقة القوة الفاعلة في حياته هو بحذافيرها ، كما امتدت إلى تنظيم جوانب الحياة الإنسانية كلها ، خافيها وظاهرها ، صغيرها وكبيرها وجليلها ، شعائرها وشرائعها ، اعتقادها وعملها ، فرديها وجماعيها ، دنيويها وأخرويها ، بحيث لا تفلت ذرة واحدة منها من عقيدة التوحيد الشاملة**»[1]

فالتوحيد هو القاعدة التي يقوم عليها البناء الإسلامي كله ، بل وكل عقائد الإسلام وغيبياته هي فرع منه ، ولا تستقيم ولا تكتسب معناها إلا من هذا الأصل .

وقد يقال : هذه عقيدة خاصة بالإسلام وبمنهجه القرآني ، فما الذى يلزم البشر ، كل البشر بها ويجعل مجيء البيان القرآني بها وترسيخه لها فتحًا في عالم الإنسانية ونقلة في تاريخ البشرية وحضارة ارتقى بها الإنسان وعالمه؟

ونقول : بل إنها لكذلك ، فالتوحيد هو نقلة صححت مقاييس الفكر وأعادت تفسير الكون في وجوده ونظامه وحركته التفسير الذي يرضي العقل

---

(١) الأستاذ سيد قطب : خصائص التصور الإسلامي ، ص ٢١٥ .

وتطمئن به النفس ، ومن يخالفون عقائد الإسلام يعلمون ذلك تمام العلم ، يعلمون أن :

«التوحيد والربط هو إحدى الرغبات العقلية»[1]

يعلمون ذلك ويقرون به وإن أنكروه ، إذ جاء من طريق ، إيمانهم به حكم بإلغاء أنفسهم وهدم عالمهم وبطلان عقائدهم التي يوقنون بخطئها وخلطها ، فهم لا يؤمنون بها وإنما هم ينتمون إليها ويدينون لها بالولاء ، فدفاعهم عنها وانضواؤهم تحت لوائها ، وإن لم تقنع لهم عقلاً أو ترضي نفسًا ، وعداؤهم لما خالفها ورفضهم له وإن علموا وأيقنوا أنه الحق ، هو انتماء المرء وولاؤه لما ولد فيه ورضع منه وغذى به وعاش فيه وهرم .

فهؤلاء لسان حالهم : لولا نزل هذا القرآن على رجل من الغرب عظيم ، وإذًا لكانوا أول المؤمنين .

أتريد الدليل؟

يقول العلامة جوستاف لوبون : **«للإسلام وحده أن يباهي بأنه أول دين أدخل التوحيد إلى العالم»**[2].

فتأمل قول لوبون : **«يباهى»** التي تعطيك معنى التوحيد وقيمته ورفعة درجته فى عقل واحد من ألمع المفكرين الاجتماعيين وأرصنهم .

«يباهى» هي علامة رفعة التوحيد وشرفه ، ودليل على أنه هو الغاية التي كان العالم يبحث عنها ولم يعرفها ويعيها سوى بالمنهج القرآني .

وأدل من لوبون ، الرصين المنصف ، إرنست رينان ، الحقود المتعصب الذي سخر قلمه وأشهر معوله على الإسلام ، ومع ذلك لم يملك ، وهو المغيظ المحنق ، أن يقول : **«إنه لا يستطيع أن يقاوم شعوراً يجرفه حين يدخل**

---

(١) الفيلسوف وليم جيمس : العقل والدين ، ص ٤٠ .

(٢) العلامة جوستاف لوبون : حضارة العرب ، ص ١٢٥ .

المسجد في رحلاته ويرى خلوه من التماثيل والزخارف التي تثقل الكنائس وتشغل العابد عن الرب ، وحين يرى وحدة المسلمين في صلاتهم ، وهذا الشعور هو أنه يتمنى لو أنه كان مسلمًا»[1].

فتأمل هذا الذي تمنى أن يكون مسلمًا لتعلم أن الذى منعه هو الذي جعله يشهر قلمه ومعوله ، وهو الذي يجعله ويجعل غيره يعرف إلى أي ذرى سامقة وسماء حمل التوحيد الإنسان ونقل البشرية وارتقى بها ثم لا يقر بذلك إلا عرضًا أو سهوًا .

التوحيد هو الرابط الذي يربط الوجود ويوحده ويفسره بصورة منطقية ترضي العقل وتحمل الطمأنينة إلى النفس .

والتوحيد هو الطريق والوسيلة التي لا طريق ولا سبيل غيرها للتعامل مع الكون ، فإن : «**حقائق الكون الكبرى لن تنكشف لعقل ينظر إلى الكون كأنه أشتات مفرقة بين الأرباب يتسلط عليها هذا بإرادة ويتسلط عليها غيره بإرادة تنقضها وتمضي بها إلى وجهة غير وجهتها . . . ومن هنا صدرت كل فكرة عظيمة عن الكون من عقل فيلسوف مؤمن بالوحدانية وإن لم تبلغه دعوة الأنبياء»**[2].

فالإنسان لا يستطيع أن يتعامل بعقله مع كون مفتت تتنازعه القوى والإرادات ، ما يسيِّر سماءه غير ما يحكم أرضه ، وما يدير حركته خلاف ما يضبط سكونه .

العقل والنفس ، وإن لم تقر بالتوحيد الإيماني فإنها تجدُّ في البحث عنه وتسعى في الوصول إليه ليمكنها أن تتعامل مع الكون ، ويستوي في ذلك من يتعاملون مع الكون كمكون من مكونات الوجود كالفلاسفة ومن يتعاملون معه كوحدة طبيعية تحكمها القوانين كعلماء الطبيعة .

---

(١) روبرت بريفالت : أثر الإسلام في تكوين الإنسانية ، ص ١١٩ .
(٢) الأستاذ عباس محمود العقاد : إبراهيم أبو الأنبياء ، ص ٤٠ .

فمسيرة العلم الطبيعي هي في حقيقتها مسيرة بحث عن التوحيد أو عن آثار التوحيد في الكون ، فنيوتن وحد المكان ، وأينشتين وحد المكان والزمان في وحدة واحدة .

والكون ، كما يقول علماء الطبيعة ، تحكم حركته وتتوزعه أربع قوى ، هي الجاذبية ، والكهرومغناطيسية ، والقوة النووية الضعيفة ، والقوة النووية القوية ، ولكن العلم لا يقنعه ذلك ولا يرضيه .

ما الذى يجعل العالم والكون تحكمه أربع قوى؟ إن هذا شىء مشتت للعقل مقلق للنفس ، يحس معه العلم والعالم ضيقًا ويتساءل : هناك شىء ما غير صحيح ، ثمة شىء يحتاج إلى تصحيح ، تعدد القوى منفر للنفس غير مقبول في العقل ، وهو باعث لهما على البحث عما وراءها .

لذلك ، فإن مسيرة العلم الكوني بعد توحيد المكان والزمان تدور حول رد هذه القوى الطبيعية الأربع إلى قوة واحدة انبثقت عنها في لحظة الانفجار العظيم ، وهي قوة مجهولة حتى الآن ولكن يجب البحث عنها لأنها لابد أن تكون موجودة ، ذلك أن اتساق الكون ونظامه المذهل لا معنى له إلا أن قوة واحدة هي التى تحكم أجزاءه وتنسق حركتها وتجانس بينها على هذه الصورة .

هذه هي طريقة تفكير العلم الذي لا يرضي عقل أصحابه ونفوسهم إلا معرفة القوة الكاملة التي تجعل الكون كله كاملاً في نظامه، فهو أثر من آثارها .

ولا يهمنا بعد ذلك أنهم يبحثوا عن هذه القوة الواحدة الكاملة المطلقة التي ترد إليها كل قوى الكون في النظريات المادية ، كنظرية الأوتار الفائقة ونظرية التماثل الفوقي[1].

---

(١) ميشيل كاكو : ما بعد أينشتين والنسبية ، نظريات توحيد الكون . وننبه من يقرأ أن يراجع اسم المؤلف من حين لآخر حتى يتأكد أنه ليس مسلماً !!

مايهمنا هو أن النفس لا تطمئن والعقل لا يقنع إلا بوجود قوة واحدة تحكم الوجود وتسيره وتكون هي الفاعلة فيه ، نسميها نحن التوحيد وليطلقوا هم عليها ما شاءوا من الأسماء .

ولا يعنينا غفلتهم عن المعنى الذي يحمله وجود هذه القوة الواحدة عندما يجدونها وتصبح حقيقة واقعة ، لأن هذا المعنى الذي تحمله هو الذي جاء به القرآن فقفز بالبشرية آلاف السنين إلى الأمام .

فإذا كانت مسيرة العلم ستنتهي بالتوحيد المادي على الأقل ، كما هو راسخ في أذهان العلماء ، فإن هذه النقلة من التوحيد المادي إلى التوحيد الشامل ، ورد القوة الواحدة إلى الإله الواحد هي الحضارة الإسلامية ، الحضارة التي تسعى مسيرة عقول البشر للوصول إليها ، لأنها الحالة الأرقى مطلقًا ، الشاملة للإنسان بكل ما فيه من مكونات الإنسان ، فهي الحضارة بمطلق الحضارة .

ولا بأس أن ننبه من يقرأ إلى أنه لابد أن يكون قد فهم الآن لماذا لا يمكن أن يكون العالم الباحث في الغرب مؤمنًا حقيقيًّا ، ولماذا هذا الفصام بين العلم والدين في الغرب .

ببساطة لأن الذي يقلقه أن الكون فيه أربع قوى ويبحث عن القرار في توحيدها في قوة واحدة ، لا يمكن أن يؤمن وتهدأ نفسه أو يصدق عقله أن الإله المسيطر على هذا الكون وعلى الوجود كله ثلاثة !

* * *

التوحيد بداية ونهاية

التوحيد الذي جاء به المنهج القرآني والمنظومة القرآنية في تفسير الوجود لم يكن نقلة إلى مجهول لم تعرفه البشرية ، بمعنى أنه إذا كان التوحيد هو الحالة الأرقى مطلقًا في تفسير الوجود وفهمه وكيفية التعامل معه والسير فيه ، فإن هذا التوحيد الذي هو لب المنظومة القرآنية ، أو هو «الجيروسكوب» فيها ليس ابتداعًا ولا خطوة في مسيرة تطورية بدأت بالتعدد الوثني وانتهت في القرآن بالتوحيد الشامل ، بعد مراحل وأطوار متعددة من الوحدانيات البدائية المتعاقبة .

وهي النظرية التي صبغت نظرة المفكرين والباحثين في أصول العقائد ، فجعلوا العقيدة سلمًا يرتقيه الإنسان بعقله، كل درجة فيه هي أرقى من سابقتها ، فيبدأ بالتعدد وينتهي بالتوحيد .

فالإنسان عندهم : «**ترقى في العقائد كما ترقى في العلوم والصناعات ، فكانت عقائده الأولى مساوية لحياته الأولى ، وكذلك كانت علومه وصناعاته**»[1].

ويقول هؤلاء العلماء[•] : «**إن هناك ثلاثة أطوار عامة مرت بها الأمم البدائية في اعتقادها بالآلهة والأرباب ، وهي دور التعدد ، ودور التمييز والترجيح ، ودور الوحدانية**»[2].

---

(١) الأستاذ عباس محمود العقاد : الله ، بحث في نشأة العقيدة الإلهية ، ص ١٠ .

(•) أول من وضع هذه النظرية في تطور العقائد وصاغها الفيلسوف الإنجليزي هربرت سبنسر الملقب بفيلسوف التطور ، وقد نشرها في كتابه : مبادئ في علم الاجتماع الصادر سنة ١٨٧٠م .

(٢) الله ، بحث في نشأة العقيدة الإلهية، ص ١٠ ، ١٩ .

وهذا التفسير لتاريخ التوحيد ومسيرته ، والذي تأثر به الأستاذ عباس محمود العقاد في عرضه لمسيرة العقيدة الإلهية ، واختلط فيه كلامه بكلام علماء مقارنة الأديان ، ولا توجد إشارة منه إلى خطئه وانحرافه ، هذا التفسير يفرغ التوحيد من مضمونه ، ويجعله مجهولاً في ماضي البشرية وخطوة في مسيرة عشواء لرقي العقل البشرى نحو فهم حالة العقيدة وكمال الإله ، وليس عقيدة البشرية التي بدأت بها وإليها تعود .

فالتوحيد طبقًا لهذا المنهج هو مسيرة من البشرية في عماء إلى مجهول لا تعلم عنه شيئًا ، ولم تستطع الوصول إليه إلا بعد آلاف السنين من التدرج .

وحسب هذا التفسير ، فإن لمن آمن بالتعدد في الألوهية العذر ، إذ لم تكن البشرية ارتقت بعقيدتها ولا وصل عقلها إلى الكمال الذي يدرك به معنى التوحيد وضرورته .

وهذه النظرية في التوحيد التي تفرغه من مضمونه ، وتفصل التوحيد عن خلق الإنسان ، وتجعله فكرة وصل إليها البشر من سابقات لها وليست عقيدة البشر الأولى الأصيلة والأصلية هي أثر من آثار نظرية التطور لتشارلز دارون : **«فهذا المذهب الذي يقول إن كل كائن عال يأتي من كائن أدنى منه نُقل تطبيقه على علم الحياة إلى علم النفس وإلى علم الاجتماع ، ثم ظهر الاتجاه إلى إرجاع كل حياة الوعي بما فيها العمليات العقلية إلى عناصر أدنى منها وإلى اعتبارها خاضعة لقوانين تطور الكائنات الحية»**[1].

فهذا التوحيد التطوري الذي يريد أن يجعل الوحدانية تطورًا في مسيرة فهم العقل البشري للألوهية ، هو في الوقت نفسه إنكار للتوحيد كحقيقة أصلية وكعقيدة مستقرة في نفوس البشر ، وهو إهدار لمعنى التوحيد الحقيقي وعلاقته بخلق الإنسان والكون وتحريف لعلاقة الخالق بخلقه .

---

(١) الفلسفة المعاصرة في أوروبا ، ص ٤٨ .

بل هو بهذا المعنى إهدار للوجود الإلهي نفسه ونقض له ، فإذا كانت نظرية التطور والنشوء والارتقاء لدارون تبدأ بأن الإنسان ارتقى من كائنات أدنى فأدنى في سلم تطوري ، لتكوين النهاية هي إنكار الخالق وعملية الخلق ، فإن التوحيد بهذا التفسير والفهم ، الذي هو المعادل المعنوي والعقائدي لنظرية التطور ، يبدأ من أن التوحيد حالة أرقى وصلت إليها البشرية من حالات أدنى ، ليصل في الطرف الآخر عند نهايته إلى أن الإله غير موجود ، تعالى الله ، لأن توحيده حالة عقلية راقية وليس حقيقة أصلية ، وهو نهاية البشرية وليس بدايتها التي بدأت بها وخلقت عليها .

فنصل بذلك إلى مفارقة لا أعجب منها ولا أغرب ، وهي فهم التوحيد بطريقة تؤدي إلى نقض الألوهية !!

ففهم التوحيد بهذه الطريقة هو في الحقيقة أحد ثمار الإلحاد وافتقاد الوحي المرشد أو الاستقلال عنه ، ولا نقصد بذلك الأستاذ العقاد طبعًا ، رحمه الله وغفر له ، وهو فى الوقت نفسه أحد وسائل غرس الإلحاد وتكريس استقلال العقل بالمعرفة وعدم حاجته إلى الوحي المعصوم .

وليس هذا هو التوحيد في المنهج والمنظومة القرآنية .

فالتوحيد كما جاء به القرآن وأعاد به تفسير الوجود هو حقيقة واقعة قبل الخلق الإنساني ، وبه بدأت البشرية مسيرتها ، عارفة بالله عز وجل وبكماله وعزته وطلاقة قدرته وانفراده سبحانه بالسلطان والقوة ، عابدة له وحده ولا تشرك به شيئًا .

فالبشرية بدأت بآدم وزوجه ، وآدم وزوجه هبطا إلى الأرض فبدأت مسيرة البشرية وهي تعلم علم يقين وجود الله عز وجل ووحدانيته وتوحده في العبادة وتوحده في الخلق ، إذ لا شيء معه سبحانه وتعالى ، ولم يكن معه جل وعلا عند بداية البشرية ما يمكن أن تزيغ به وتضل فيه فتعبده ، وهي بعد قد شهدت الخلق الإنساني بالقدرة الإلهية مباشرة .

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (البقرة:٣٧)

﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ (طه:١٢٢)

فآدم ، أبو البشرية الذي بدأت به ، كان على الأرض مهتديًا تائبًا إلى الله عز وجل ، مجتبى منه عارفًا به عابدًا له ، وورث أبناؤه وأنساله عنه ذلك ، وظلت البشرية عشرة قرون ما بين آدم ونوح عليهما السلام على الحق الأول والتوحيد الأصلي ، كما أخبر بذلك المعصوم عليه الصلاة والسلام[1].

وما حدث هو أن البشرية ضلت وظلت تضل طوال مسيرتها على الأرض عن الحالة الأصلية الأولى ، حالة الخلق العارفة بالله الموحدة له المؤمنة به ، ضلت وظلت تضل بسبب الغفلة ، وطول الزمن وبعده عن أحداث الخلق الأول ، وبانحراف النفس واضطراب العقل وأهواء البشر .

والله عز وجل لم يترك البشرية تسير في عماء تبحث عن مجهول ، وإنما كلما ضل البشر اصطفى عزوجل رجلاً منهم لا تزال فيه نقاوة الفطرة وحالة الخلق الأصلية ، فيوحي إليه ويعلمه بضلال البشر ويكلفه تعريفهم بحالة الخلق الأصلية التي وجدوا عليها وبدأوا بها مسيرتهم على الأرض ويأمره بإعادتهم إلى منهاج أبيهم الأول .

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ (البقرة:٢١٣).

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء:٢٥)

فالبشرية كانت أمة واحدة على التوحيد والمعرفة الحقة بالله عز وجل ثم انشعبت وافترقت وضل من ضل ، وما بدأت البشرية بالوثنية والتعدد ، ولا ظلت تائهة دون إرشاد من الخالق إلى أن جاء الإسلام .

---

(١) رواه الحاكم .

وبصورة أخرى ، فإن المنهج القرآني لم يأت لنقل البشرية من التعدد إلى الوحدانية والتوحيد كحالة عقلية أرقى ، وإنما جاء ليعيد البشرية إلى التوحيد الأول الذى بدأت به ، والذي هو حقيقة قبل الخلق وعنده وبعده ، ولا سبيل لمعرفة الإنسان بها على وجهها الصحيح المطابق للحق إلا ممن شهد الخلق الأول وبداية البشرية ، وليس التوحيد حالة راقية أو نظرية تنتظر من عقل الإنسان رقيه ليكتشفها أو يخترعها ، فإن لم يعرفها ظلت في طي المجهول ، وإن عرفها فليس له من سبيل ولا وسيلة يمكنه أن يحكم بها إن كان ما وصل إليه عقله حقيقة أم وهمًا ، صحيح أم تحريف .

والسؤال الآن : إذا كان التوحيد هو حالة البشرية الأصلية التي فطرت عليها ، وهو الرسالة التي بعث بها الأنبياء جميعًا إلى البشر ، فلماذا إذًا يكون الإسلام وحده هو الذي من حقه أن يتباهى بالتوحيد ويباهي به ، إذ عندها لا تكون هذه النقلة الحضارية في عقل البشرية من صنعه وحده ولا هو انفرد بها؟

ونقول : لا ، بل هي من صنعه وحده وخصيصته وحده ، لأن البشرية لم تحفظ التوحيد قبل الإسلام ولا هى وعته ، وإنما ما يلبث إلا قليلاً بعد أن تجىء به الأنبياء والرسالات ثم يذهب ويدرس وتحل محله ضلالات البشر وتحريفاتهم .

وفضل الإسلام هو أن التوحيد فيه قد عُصم من التحريف في أصوله وتغيير معناه الحقيقي بحفظ النص الذي يحمله .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر:٩).

وعُصم من التزيد على أصوله واختلاطها بغيرها من الرؤى والتصورات والضلالات البشرية بغلق المنظومة التي تحمله .

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ (المائدة:٣)

والسؤال الآخر الذي يُسأل : التوحيد عقيدة راقية في العقل سواءً كان بداية البشرية أو كان النهاية والغاية التي وصلت إليها ، فهبه كان هكذا أو كذلك ما الذي يفرق ، أليس المهم أنه وصلت البشرية إلى التوحيد؟

ونقول : لا . بل الأهم كيف وصلت البشرية إلى التوحيد وعرفته ، لأن الإجابة على هذا السؤال عن طريق التوحيد هي التى تحدد هل هذا التوحيد توحيد حقًّا أم حالة وهمية يطلق عليها اسم التوحيد .

أو بتعبير آخر ، الطريق والوسيلة التي عرفت بها البشرية التوحيد هى جزء من التوحيد لا ينفصل عنه .

لو كان التوحيد نهاية في عقل البشرية وليس بداية مكونة لها لكان معنى ذلك :

أولاً : نقض الألوهية والوجود الإلهي كما أسلفنا .

ثانيًا : إهدار الوحي ، إذ لا فائدة منه إذا كانت البشرية قادرة على الوصول إلى التوحيد بعقلها في استقلال عنه .

ثالثًا : استبعاد الوحي كوسيلة للمعرفة معصومة لا يكافئها العقل ولا هو بند لها ، واستبعاده من صياغة النفس الإنسانية وتشكيل المجتمع البشري .

رابعًا : انحراف التوحيد ، إذ لو كان التوحيد متعلقًا بالعقل لكانت المنظومة مفتوحة قابلة للتعديل والتغيير ، وقابلة للاختلاف بين عقل وعقل ، وبين زمان وزمان ، وبين مكان ومكان .

فالتوحيد هو العقيدة الراقية في كل عقل ، بيد أن صفات هذا التوحيد ولوازمه ونواتجه لا حد لاختلاف عقول البشر فيها ، بل وتضاربها ، والمسألة حينئذ سوف تفضي إلى أن يكون لكل قطاع أو فئة من البشرية توحيدها الخاص ، وكلها لا علاقة لها بالحقيقة الأصلية الأصيلة .

خامسًا : هو أثر ذلك كله في نفس الإنسان وتكوين المجتمع ، فأن يكون التوحيد حالة أو نظرية غير أن يكون حقيقة .

فعدم الوصول إلى الحالة لن يضير الإنسان في نفسه ولن يؤثر في المجتمع طالما أنه لم يعرفها ولم يطمح إليها .

أما أن يكون التوحيد حقيقة خلقت بها وعليها البشرية ، فإن نزعه منها هو تمزيق لنفس الإنسان وتشتيت لعقله وخلل في تكوينه يفضي إلى خلل في رؤية عناصر الوجود ، وإلى انحراف في فهم الروابط بينها ، وإلى آثار فادحة متراكمة في التعامل مع الخلق والكون .

* * *

obeikandl.com

التوحيد الوهمي

الألفاظ كثيراً ما تكون خداعة وتحدث لبسًا يخلط الصواب بالخطأ والحق بالضلال .

ولفظ التوحيد يستخدم أحيانًا بطريقة تُدخل فيه ما ليس منه وتضع عقائد متعددة ومتباينة ، بل ومتنافرة تحت مسمى التوحيد .

فـ : «**عبادة أتون هي أرقى ما وصل إليه البشر من عبادات التوحيد في القرن الرابع عشر قبل الميلاد**»[1].

و«**اليهودية والإسلام تريان أن هذا الاعتقاد (التثليث) ليس إلا شركًا مقنعًا وتعلنان وحدانية الله بأقوى الألفاظ**»[2].

ونوضح أولاً أننا لم نختر هذين المثالين عبثًا ولا مصادفة ، وإنما اخترناهما لأن أحدهما يوصف بأنه أرقى ما وصلت إليه البشرية من توحيد ، ولأن الإعلام في بلاد المحروسة يستخدمه كدعاية للفرعونية وكتلميع لها لإحلالها محل الهوية الإسلامية ورموزها .

وأما الثاني ، فلأن اليهودية تعد ديانة توحيدية للإله في أرقى صور التوحيد ، بما جعل ول ديورانت يقرنها بالإسلام مع علمه التام بما بينهما من شاسع البون .

واخترناهما معًا لأنهما ضمّا بشهادة من استدلوا بهما أرقى ما عرف البشر من التوحيد لنعرف مقدار القفزة الهائلة التي قفز فيها الإسلام بالبشرية حتى أعادها إلى التوحيد الحقيقي الأصيل الذي بدأت منه وبه مسيرتها .

---

(١) الله ، بحث في نشأة العقيدة الإلهية، ص ٩٢ .

(٢) قصة الحضارة ، ٥٣/١٣ .

وليس يعنينا عرض المسيحية ولا نقدها ، لأن التثليث من اسمه ورسمه أهون من أن يوضع إلى جوار التوحيد ابتداءً .

ولسنا في حاجة إلى عرض الوثنيات وعبادة الآلهة المتعددة ، إذ يغنينا عن ذلك كله ما يوصف بالرقي والذروة في العقيدة : التوحيد الإخناتوني والتوحيد اليهودي .

ولنبدأ بالتوحيد اليهودي الذي جعله ديورانت صنواً للتوحيد الإسلامي .

الإله في التوراة في أرقى صورة له فيها واحد .

حسنا! هذا هو الشيء الوحيد الذي يشترك فيه التوحيد اليهودي مع التوحيد الإسلامي ، وما بعد ذلك فلا وجه للشبه ولا للمقارنة بينهما مطلقًا .

فإله التوراة الواحد جعله كتبتها إلهًا قبليًّا خاصًّا باليهود وحدهم ، لا يعبده ولا يعرفه سواهم ، وهو نفسه لا يرى إلا اليهود ولا يخاطب أحدًا غيرهم ، ولا يغضب إلا لهم ، ولا ينصر أحدًا إلا هم ، ولا يعنيه أحد في الكون سوى مجد قبيلته بني إسرائيل وقوتهم ، وما يربطه بهم ويربطهم به ليس طاعته ولا الإيمان به ، بل هو معهم ولهم على كل حال ، أطاعوه أو عصوه ، فرابطتهم به رابطة دم ونسب وليس رابطة عقيدة وإيمان .

فالإله الذي هو واحد في التوراة أقرب إلى شيخ القبيلة المدافع عنها ، والمتطلعة هي إلى سلطته منه إلى الإله ، فمما نسبه إلى الإله كتبة التوراة :

« [٦] لِذلِكَ قُلْ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ : أَنَا الرَّبُّ ، وَأَنَا أُخْرِجُكُمْ مِنْ تَحْتِ أَثْقَالِ الْمِصْرِيِّينَ وَأُنْقِذُكُمْ مِنْ عُبُودِيَّتِهِمْ وَأُخَلِّصُكُمْ بِذِرَاعٍ مَمْدُودَةٍ وَبِأَحْكَامٍ عَظِيمَةٍ ، [٧] وَأَتَّخِذُكُمْ لِي شَعْبًا ، وَأَكُونُ لَكُمْ إِلهًا »(١) .

وهذا الإله لأنه شيخ القبيلة اليهودية فهو مقيد بها لا يستطيع أن يغضب عليها أو أن يعاقبها لأن ضعفها مهانة له هو نفسه بين الناس وأمام مشايخ القبائل الأخرى .

---

(١) خروج : (٦ : ٦-٧) .

« ٩وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى : «رَأَيْتُ هذَا الشَّعْبَ وَإِذَا هُوَ شَعْبٌ صُلْبُ الرَّقَبَةِ . ١٠فَالآنَ اتْرُكْنِي لِيَحْمَى غَضَبِي عَلَيْهِمْ وَأُفْنِيَهُمْ ، فَأُصَيِّرَكَ شَعْبًا عَظِيمًا» . ١١فَتَضَرَّعَ مُوسَى أَمَامَ الرَّبِّ إِلهِهِ ، وَقَالَ : «لِمَاذَا يَا رَبُّ يَحْمَى غَضَبُكَ عَلَى شَعْبِكَ الَّذِي أَخْرَجْتَهُ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ بِقُوَّةٍ عَظِيمَةٍ وَيَدٍ شَدِيدَةٍ؟ ١٢لِمَاذَا يَتَكَلَّمُ الْمِصْرِيُّونَ قَائِلِينَ : أَخْرَجَهُمْ بِخُبْثٍ لِيَقْتُلَهُمْ فِي الْجِبَالِ ، وَيُفْنِيَهُمْ عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ؟ اِرْجِعْ عَنْ حُمُوِّ غَضَبِكَ ، وَانْدَمْ عَلَى الشَّرِّ بِشَعْبِكَ . ... ١٤فَنَدِمَ الرَّبُّ عَلَى الشَّرِّ الَّذِي قَالَ إِنَّهُ يَفْعَلُهُ بِشَعْبِهِ .» (١).

من يقرأ هذا المشهد وقد أُخفيت أسماء أبطاله ، أيمكنه أن يعرف من الرب ومن العبد ، موسى الذي يوبخ ويرشد وينبه ويحذر أم الرب الذي يغضب غضبًا شديدًا ثم يندم على غضبه ويتراجع عن ما أراده مخافة الفضائح وكلام الناس وحتى يظل الخلاف محصورًا في نطاق القبيلة؟!

وهذا الإله الواحد في التوراة جاهل ناقص العلم لا يحيط بما يحدث في الكون والخلق ، ولا يستطيع تمييز شعبه من أعدائه :

« ١وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى وَهَارُونَ فِي أَرْضِ مِصْرَ قَائِلاً : ٢ ... ٣كَلِّمَا كُلَّ جَمَاعَةِ إِسْرَائِيلَ قَائِلَيْنِ : فِي الْعَاشِرِ مِنْ هذَا الشَّهْرِ يَأْخُذُونَ لَهُمْ كُلُّ وَاحِدٍ شَاةً بِحَسَبِ بُيُوتِ الآبَاءِ ، شَاةً لِلْبَيْتِ . ٤وَإِنْ كَانَ الْبَيْتُ صَغِيرًا عَنْ أَنْ يَكُونَ كُفْوًا لِشَاةٍ ، يَأْخُذُ هُوَ وَجَارُهُ الْقَرِيبُ مِنْ بَيْتِهِ بِحَسَبِ عَدَدِ النُّفُوسِ . كُلُّ وَاحِدٍ عَلَى حَسَبِ أُكْلِهِ تَحْسِبُونَ لِلشَّاةِ . . . . ٦وَيَكُونُ عِنْدَكُمْ تَحْتَ الْحِفْظِ إِلَى الْيَوْمِ الرَّابِعَ عَشَرَ مِنْ هذَا الشَّهْرِ . ثُمَّ يَذْبَحُهُ كُلُّ جُمْهُورِ جَمَاعَةِ إِسْرَائِيلَ فِي الْعَشِيَّةِ . ٧وَيَأْخُذُونَ مِنَ الدَّمِ وَيَجْعَلُونَهُ عَلَى الْقَائِمَتَيْنِ وَالْعَتَبَةِ الْعُلْيَا فِي الْبُيُوتِ الَّتِي يَأْكُلُونَهُ فِيهَا . . . ١٢فَإِنِّي أَجْتَازُ فِي أَرْضِ مِصْرَ هذِهِ

(١) خروج : (٣٢ : ٩-١٤) .

اللَّيْلَةَ ، وَأَضْرِبُ كُلَّ بِكْرٍ فِي أَرْضِ مِصْرَ مِنَ النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ . وَأَصْنَعُ أَحْكَامًا بِكُلِّ آلِهَةِ الْمِصْرِيِّينَ . أَنَا الرَّبُّ . ١٣ وَيَكُونُ لَكُمُ الدَّمُ عَلاَمَةً عَلَى الْبُيُوتِ الَّتِي أَنْتُمْ فِيهَا ، فَأَرَى الدَّمَ وَأَعْبُرُ عَنْكُمْ ، فَلاَ يَكُونُ عَلَيْكُمْ ضَرْبَةٌ لِلْهَلاَكِ حِينَ أَضْرِبُ أَرْضَ مِصْرَ»[1]

فإله التوراة الواحد بحاجة إلى علامة ليستطيع تمييز بيوت شعبه من بيوت غيرهم .

وهذا الإله القبلي الغضوب الجامح النادم على أفعاله المتراجع عنها ، الذي يملك شعبه السلطة عليه ويوبخه ، والذى يجهل ما يحدث ويحتاج إلى من يعرفه ما يجهله هو أيضًا مغفل ويمكن للإنسان أن يخدعه كما في قصة سرقة يعقوب البركة من إسحق وهي من حق أخيه عيسو[2].

وهو ضعيف والإنسان ند له قادر على مصارعته ومغالبته وهزيمته لولا أن الإله غير شريف ويستخدم وسائل غير نظيفة ويلجأ للضرب تحت الحزام ، كما في قصة مصارعة يعقوب للإله وعدم قدرة الإله على هزيمته إلا بضربه على حقويه في غفلة دفاعية منه[3].

وهذا الإله الضعيف أمام قبيلته وأفرادها ، يهزمونه ويستغفلونه ويوبخونه ، شرس عاتٍ أمام كل قبيلة غير قبيلته ، يبيدها ويفنيها عن آخرها ، لا لشيء إلا لعداوتها لقبيلته[4].

فإذا كنا نتحدث عن الحضارة وعن ثمار الحضارة ، كيف يكون وضع هذا الإله القبلي الجاهل المغفل الغضوب الشرس في الكون ، وما دوره المنطقي فيه

---

(١) خروج : (١٢ : ١-١٣)
(٢) تكوين : (٢٧)
(٣) تكوين : (٣٢)
(٤) تثنية : (٢٠)

الذي يتناسق مع صفاته هذه ، وما هي قدرته على تسيير كونه وخلقه ، والعقل الذي يؤمن بإله هذه صفاته كيف يتعامل معه ، هل يعبده ، وكيف يعبده وبإمكانه أن يستخفي منه فلا يعرف إن كان يعبده أم لا ، هل يطيعه ، هل يمكن أن يصدر منه أي عمل ويقصده به ويرجو ثوابه أو يخشى عقابه ، هل هذا الإله يمكن أن يكون قوة فاعلة في العقل والنفس الإنسانية ، تثيره وتحركها ، هل يرضى العقل أن يكون الإله هكذا وأحد أدلة وجود الإله هو إحساس الإنسان بضرورة وجود من هو أكمل منه كمالاً يتنزه عن نقصه ، هل يمكن أن تستقر النفس مع هذا الإله؟

بإيجاز : هل يمكن لاعتقادٍ ، هذا الإله جوهره ومركزه أن يثمر تفاعلاً مع الكون والحياة أو أن ينتج رقيًّا للإنسان في عقله ونفسه ، هل وجود هذا الإله دافع أم عائق ، قوة أم أثقال؟

يجب الإجابة على هذه الأسئلة لنعرف مقدار النقلة التي أتى بها المنهج القرآني حق قدرها في ميزان العقل والنفس وفي ميزان الحضارة ، بتحرير الإنسانية من هذا الإله وأمثاله .

* * *

obeikandl.com

المسألة الإخناتونية

المسألة الإخناتونية لا تستحق الوقوف عندها هي في الحقيقة ، بل عند ما يحيط بها من دجل واسع النطاق ، حولها إلى ما يشبه العقيدة الراسخة في أذهان قطاعات واسعة من المصريين .

هذا الدجل الواسع النطاق الهادف إلى ترسيخ صورة راقية لعقيدة إخناتون ، من أجل الترويج للفرعونية ونشرها وخلق ثقافة عامة بها لتحتل مكان ثقافة الإسلام التى قطعت كل ما كان قبلها .

لذلك يعتمد عرض المسألة الإخناتونية وبثها دائمًا على العموميات والاختباء خلف الألفاظ ، ويحرص ناشروها على ألا يحيطوا من يلقون إليهم بها علمًا بكل تفاصيلها ، فالمطلوب هو الجزء الظاهري فقط أو الغلاف الذي يسهل عملية البلع ويصرف الذهن عن المحتوى .

فقد صار من المسلمات البديهية في أذهان ناشئة المدارس أن إخناتون هو أول من نادى بالتوحيد على الأرض!!

ولم يعد من الغريب في مسابقة أو سؤال في الإذاعة أو التلفاز أن يسأل المذيع أو المذيعة الضيف أو المتسابق : من أول من نادى بالتوحيد؟ فيعتدل المتحدث ويضع ساقًا على ساق ويعيد ضبط نظارته ثم يقول في تواضع العلماء : إخناتون !! ليرد عليه المذيع أو المذيعة : برافو ، ويكسب الجائزة !!

ولا يسأل أحد عن آدم عليه السلام ، ولا يرد ذكر لنوح ولا إبراهيم وأولاده وأحفاده ، وكلهم أنبياء عليهم صلوات الله وسلامه .

ولأن المسألة كلها دجل نقف عندها وقفات نبينه ونجليه بها .

ما هو التوحيد الإخناتوني ؟

هب أن أقوامًا يعبدون آلهة متعددة ، ولتكن تماثيل وأصنامًا مثلاً أو نجومًا وكواكب ، ثم توحد هؤلاء الأقوام معًا في دولة واحدة ومكان واحد فارتأوا إكمالاً للوحدة أن يوحدوا الآلهة في إله واحد يجمعهم جميعًا ويلتقون عنده ، فتكتمل الوحدة بتداخل الأفكار والعقائد مما يكسب الدولة قوة ومنعة ، فاختاروا إلهًا من الآلهة المتعددة واتفقوا عليه وصار هو معبودهم الوحيد .

ولكي تصير الدولة قوية ، ولكي يستمد الجند والشعب القوة ، ولكى يشعروا دائمًا بالمدد وصفوا الإله الجديد بصفات القوة والقدرة وأسندوا له كل فعل يحدث حولهم في الطبيعة أو في الدولة ، واستمد الملك الموحد شرعيته منه .

هل هذا يسمى توحيدًا ، هل استبدال صنم بأصنام أو نجم بكواكب هو الوحدانية وتوحيد الإله؟

لماذا لا يذكر من يدعون أن إخناتون هو أول من نادى بالوحدانية على الأرض إله إخناتون وصفته وما هو؟

لا يستطيعون ، إذ لو فعلوا لصاروا أضحوكة وصار التوحيد الذي يختبئون خلف اسمه مادة للتندر ، وصار من يروجون له ويقفون خلفه ويقفزون خلف الإسلام إليه هزؤا وسخرية .

فما هو إله إخناتون الواحد؟

كانت الشمس قبل إخناتون إلهًا معبودًا يمثل على هيئة إنسان له رأس صقر، وما فعله إخناتون في إلهه الجديد هو أنه جعل : «**الإله على صورة الشمس نفسها ، ومن الشمس تخرج أشعة تنتهي بأيد ، وهذه الأيدي معناها أن الشمس تعطي الإنسان الحياة وكل ما هو طيب ، وفي بعض الأحيان كان يثبت في الطرف السفلي لقرص الشمس شعاره القديم ، الصل**»[1].

---

(١) أدولف إرمان : ديانة مصر القديمة ، ص ١٢٧ .

فآتون ، إله إخناتون ، هو آمون رع السابق له في صورة جديدة فقط .

وأما أنشودة إخناتون التي يناجى فيها الإله[1] .

فأولاً : هذه الأنشودة ليست إلا مجرد نظم لأثر الشمس الظاهر في الطبيعة والناس ، فهي تنظر إلى آثار أشعة الشمس على الأرض ثم تناجي الشمس الإله به : «**إذا غربت في أفق السماء أظلمت الدنيا . . . فيقصد السكان النوم في حجراتهم . . . الأسود تخرج من أجحارها وكذا الثعابين . . . يسود الظلام لأن خالق هذه الأشياء كلها ذهب ليستريح في أفقه (!) . . . إذا ما ظهرت في الأفق أضاءت الأرض . . . . الإنسان يخرج إلى عمله وإلى شغله حتى المساء ، والبهائم كلها مستريحة في مراعيها . . . والأشجار والنبات جميعًا يانعة . . . والعصافير تخفق والأغنام ترفض والطيور تحلق إذا ما أشرقت عليها**».

ثانيًا : هذه الأنشودة المناجاة والصفات المخلوعة على الشمس الإله فيها ليست فريدة في بابها عند المصريين القدماء ، ولا هى وحي هبط على أمنحتب الرابع الملقب بإخناتون فجأة .

ففى عصر أبيه أمنحتب الثالث كانت أنشودة آمون تحمل من المعاني ما تحمله أنشودة آتون التي أتى بها إخناتون : «**التسبيح لك . . . أنت تعطي الحياة ، الذي لم يولد ... أنت الوحيد من فرعك الذي يعبر الأبدية كلها ... فبفضلك ترى جميع العيون ولا تقوم بأداء شىء بعد أن تنام جلالتك (!)... نورك تفتح الأعين ولكنك حينما تغرب فإنهم ينامون كالأموات . . . المجد لك أي شمس النهار التى خلقت كل الكائنات الحية وتكفلت بما يحتاجون إليه . . . أنت أيها الصقر الكبير ذا الريش . . . أنت الخالق الطيب الذي يتعب نفسه من أجل مخلوقاته العديدة**»[2] .

---

(١) انظر أنشودة إخناتون كاملة فى : جيمس برستد : تاريخ مصر من أقدم العصور ، ص٣٠٤-٣٠٧ ، وفجر الضمير ، ص ٣٠١-٣٠٨ .

(٢) ديانة مصر القديمة ، ص ١٢٣ ، ١٢٤ .

فلم يفعل إخناتون سوى أن نزع الصقر الكبير ذا الريش ووضع مكانه قرص الشمس الأخطبوطي المتعدد الأيدي ثم قام ببسط : «**بفضلك ترى جميع العيون ولا تقوم بشيء بعد أن تنام جلالتك**».

فإذا كان البعض يصر على أن يجعل للمصريين القدماء شرف الوصول إلى التوحيد وتعريف البشرية به فلينسب الفضل والشرف إذًا لصاحبه ، وهو ليس إخناتون ولكن سابقه أمنحتب الثالث .

أما ما افتتن به البعض من إشارة برستد في كتابه : تاريخ مصر من أقدم العصور إلى التشابه بين أنشودة إخناتون والمزمور الرابع بعد المائة التوراتي المنسوب لداوود ، ثم مقارنته بينهما في كتابه : فجر الضمير فيثير لغزًا : هل يعتقد هؤلاء أن الوحي السماوي الموحى به من الله عز وجل مأخوذ من معتقدات وثنية لقوم يعبدون الشمس؟!

وحل اللغز عند برستد وليس عند من يجتزءون منه لدعم رؤاهم ويغضون الطرف عما وراءه .

فالمؤرخ البريطاني قارن بين أنشودة إخناتون والمزمور الرابع بعد المائة ، وأيضًا بين أمثال الحكيم المصري القديم أمينوبي وسفر الأمثال التوراتي ، وبين أمينوبي وكلام النبي إرميا في السفر المسمى باسمه ، وبينه وبين موسى التوراتي في سفر العدد .

وحل اللغز هو أن برستد يتعامل مع التوراة التي أمامه كتراث أدبي وفكري وتاريخي للجماعات العبرانية وليس كوحي سماوي .

وبالنظر إلى التوراة التي ليس أمامه غيرها كنتاج بشري للقبائل العبرية تحمل تاريخها وتاريخ عقائدها ، فإنه يعقد هذه المقارنات ليصل إلى نتيجة فحواها أسبقية العقائد والثقافة والأخلاق المصرية القديمة على التراث البشري العبري وتسربها إليه وتأثيرها وظهور آثارها في التوراة التي يقارن معها ، ومن ثَم إسهام الفكر والعقائد المصرية القديمة في تكوين الغرب أو الحضارة اليهودية المسيحية .

فبرستد في : فجر الضمير يقوم بعملية بحث وحفر وتنقيب خلال الطبقة اليهودية الإسرائيلية عما جعله عنوانًا للفصل الأخير في كتابه : « مصادر أو منابع إرثنا الخلقي » ، مع التنبيه على أن ما قصده برستد ويبحث عنه هو مصادر إرث الغرب الخلقي ، وهو ما لايحتاج قارئ الفصل المذكور إلى تنبيهه إليه .

والنتيجة التي وصل إليها برستد هي إحدى ثمار النظرة والتفسير التطوري للعقائد الذي ينضح من كتابه نضحًا ، بل إن برستد يمد التفسير التطوري إلى العقائد الإسرائيلية نفسها ، فهو يصرح بأن عقائد الإسرائيليين تطورت من عبادة آلهة متعددة إلى عبادة إله واحد في مدى زمنى طويل وخلال قرون عديدة .

ولأن برستد يقوم بتعميق جذور الأخلاق والعقائد الغربية عبر تفسير تطوري يعود بها إلى أقدم ما وصل إليه من نصوص مكتوبة ، فالقرآن بالضرورة ليس مطروحًا عنده كمصدر معرفة سماوية أو تاريخية ، فهو منفي عنده وعند أمثاله ابتداءً ، ولا حتى لمجرد المقارنة بينه وبين التوراة التي لا يستطيع أحد استبعادها لأنها حجر الزاوية في الحضارة الغربية ، يستوي في ذلك من آمن بها وحيًا ومن تعامل معها كتراث بشري .

إذًا برستد متسق مع نفسه ، إذ التوراة عنده تراث ونتاج بشري أثر فيه تراث ونتاج بشري سابق عليه ، وهو ما لا ننازعه فيه . فالتوراة نفسها التي أمامنا تنسب بعض المزامير لداوود نصًّا ولكنها تسكت عن بعضها الآخر ، ومنها المزمور الرابع بعد المائة بما يعني ، ضمنًا ، أنها مجهولة الأصل .

أما من يدغدغ كلام برستد عواطفهم ويثير مشاعرهم فيجتزءون منه أثر عقائد المصريين القدماء وأخلاقهم في التوراة فإنهم لا يملكون شجاعة برستد وصراحته في الإقرار أولاً بأن هذه التوراة تراث بشري وليس وحيًا سماويًّا .

ومتابعة لبرستد ولغيره يتجاهلون هم أيضًا الوحي القرآني كوسيلة معرفة ، أيضًا ولو لمجرد المقارنة بينه وبين التوراة ، إذ في وجوده ، القرآن ، تنهار

النظرية التي نتجت عنها هذه الرؤية وهذا الفهم من أساسها ، ويكون إخناتون وثنيًا مشركًا لا عابدًا موحدًا .

وباستبعاد القرآن ، وبالسياق الذي تقدم فيه التوراة لا كتراث عبري خاص بمن كتبوه ، بل كأول كتاب سماوي مكتوب يصل إلينا يصبح إخناتون والمصريون القدماء هم سابقة الوحي السماوي !!

فأي مجد وعز وفخر !! وأي تضليل واستخفاف بالعقول !!

لماذا نقل إخناتون العبادة من آمون إلى آتون؟

إذا كان آتون كآمون فلماذا نقل إخناتون العبادة من هذا إلى ذاك ؟

«كان الدين في مصر فوق كل شيء ومن أسفل منه ، فنحن نراه فيها في كل مرحلة من مراحله وفي كل شكل من أشكاله ، من الطواطم إلى عالم اللاهوت ، ونرى أثره في الأدب وفي نظام الحكم وفي الفن وفي كل شيء عدا الأخلاق»[1] **!!**

فالدين في مصر القديمة كان يغلف كل شيء ، وهو مستند الحكم وقوته ، وهو الوسيلة المثلى لاكتساب الشرعية وحيازة الملك .

لذا من أول يوم في توحيد القطرين أعلن مينا أو نعرمر قانونًا عامًّا أوحى به إليه الإله تحوت .

وحين كانت حتشبسوت ، وهي من الأسرة الثامنة عشرة التي ينتمي إليها إخناتون ، في حاجة إلى الشرعية وتعضيد وضعها كحاكم أنثى في المجتمع المصري القديم الذي لا يقبل أن تحكمه أنثى ، أعلن جهاز دعايتها وحاشيتها أن الملكة عُينت بأمر إلهي قديم ، وبذلوا جهودا جبارة لإقناع الناس بذلك ، ورسموا على جدران معبد الدير البحري ما أشاعوه بين الناس من أن الإله آمون جاء أم حتشبسوت وخاطبها قائلاً : ستحملين مني بابنة تدعى حتشبسوت

---

(١) قصة الحضارة ، ٢/١٥٥ .

تعتلي عرش مصر وتحكم البلاد كلها بمهارة ، فصارت بذلك ملكة بشرعية إلهية مقدسة لا يستطيع منازعتها أحد .

وأمثال هذه الحيل والخدع للاستيلاء على السلطة وتثبيت دعائم الحكم كثيرة في مصر القديمة .

فمسألة الألوهية والمعبود في مصر القديمة كانت مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بسلطة الحاكم وشكل الدولة ، فعندما تكون الدولة مجزأة تتعدد الآلهة ولكل إله نسله من الحكام ولهم السلطان على الإقليم الذي يعبده أهله .

وعندما تتوحد الدولة تتضاءل الآلهة إلى جوار إله واحد عظيم يمثل الدولة الواحدة ويمثله الحاكم الواحد ، إذ هو ينحدر من نسله ويكتسب منه شرعية الحكم والسلطان ، وبه يطيعه أهلها : «**فالملك هو الذي يتسلم المملكة من الإله ليسلمها له ، وهو أيضًا الذي يطلب الإكثار من المستعمرات لتتسع بذلك أملاك الإله**»[1] .

إذًا ما المشكلة والحاكم مطلق السلطة والسلطان بأمر الإله في أذهان الناس؟

المشكلة هي أن الوصلة بين الحاكم وبين الإله في الأعراف الراسخة عند المصريين القدماء كانت هي الكهنة الذين تضخمت ثرواتهم مما يوقف للإله ويمنح له من الغنائم وإقطاعات الأراضي وتضخم سلطانهم ونفوذهم في الدولة باعتبارهم الطريق إلى الإله الذي لن يحكم الحاكم إلا برضاه ، ومن ثَم برضاهم . «**وأصبح الكهنة مع الوقت هم دعامة العرش والشرطة السرية القوامة على النظام الاجتماعي**»[2].

واتسع نفوذ الكهنة وامتد إلى شؤون الحكم وإدارة البلاد : «**وكان هذا التدخل الكهنوتي العظيم في شؤون الإمبراطورية السياسية هو الذي شدد عزيمة إخناتون على انتزاعه من هذه الطائفة**»[3].

---

(١) تاريخ مصر من أقدم العصور ، ص ١٩٤ .

(٢) قصة الحضارة ، ١٦١/٢ .

(٣) تاريخ مصر من أقدم العصور ، ص ٢٩٦ .

فإخناتون لم يستبدل آتون بآمون إلا ليضرب سلطة كهنة آمون التي كانت تنازعه وتنازع من قبله السيادة وتقيد سلطته في حكم البلاد ، ولم يكن يوقف سلطة الكهنة قبله سوى تحتمس الثالث بشخصه المهيب وقدراته السياسية وانتصاراته العسكرية الفذة التي منحته شرعية حكم البلاد منفردًا وفي استقلال عن الكهنة .

أما من خلفوا تحتمس الثالث فلم تكن لهم هذه العظمة ولا المهابة فاتسع نفوذ الكهنة وتضخم على حسابهم ، ولذلك كانت بذرة الثورة على الكهنة وإلههم آمون سابقة على إخناتون ، في عهد سلفه وأبيه أمنحتب الثالث .

واستكمل إخناتون ما بدأه أبوه .

فعندما يمحو إخناتون آمون فهو بذلك يقوم في الحقيقة بتصفية طبقة الكهنوت الآموني كلها ، وعندما ينقل مقر الإله من طيبة إلى آخت آتون فإنه بذلك ينقل السلطة في البلاد من مقر نفوذ الكهنة إلى مقر جديد لا سلطان لهم عليه ، وعندما يصبح الإله آتون وليس آمون تتحول الأموال والإقطاعات والغنائم من الكهنة إليه هو .

ولأن المقصود الحقيقي بضربة إخناتون هو الكهنة وليس العبادة التي لا فرق فيها بين شمس وشمس : «**أمر الحكومة بوضع يدها على أملاك الكهنة جميعًا بما فيها أملاك كهنة آمون**»[1].

ولاحق إخناتون آمون الذي يمنح الكهنة السلطة في كل مكان : «**ولكن اضطهاد الآلهة الأخرى لا تظهر له نتائج قوية كاضطهاد آمون**»[2].

وهكذا أزال إخناتون سلطة الكهنة وقطع عنهم الأموال والثروات ، وضمانًا لعدم قيام طبقة كهنوت أخرى تكون وصلة مع آتون فتسلبه السلطان أو تنازعه

---

(١) تاريخ مصر من أقدم العصور ، ص ٢٩٧ .

(٢) ديانة مصر القديمة ، ص١٣٣ .

فيه كما كان كهنة آمون ، أعلن إخناتون في أنشودته التي تـردد في كـل المعابـد أن : «**هذا الإله لا يعرفه أحد سوى ابنه إخناتون فقط**»[1]!!

وبذلك سد المنافذ على الكهنـة مـن جميـع الجهـات ، وصـار هـو صـاحب السلطان الأوحد ملكًا وكاهنًا في الوقت نفسه .

لـذلك عنـدما ينـاجي إخنـاتون في أنشـودته الشـمس الإلـه : «**مـا أبـدع مشـروعاتك**» ، فإنـه لا يعـني بـذلك إلا نفسـه ، لأنـه لا أحـد يعـرف آتـون ومشروعاته إلا هو وحده .

وعندما يقول : «**أنت الذي أحللت كل إنسان في سوريا والنوبة ومصـر في موضعه وأنعمت عليه بحاجاته**»، فإنه يمجد نفسه ويعلن سلطانه وسلطته على رعيته وإنعامه عليهم في البلاد التي تضمها مملكته .

أما الجملة في الأنشودة التي افتتن بها الـدجالون وجعلوهـا شـعارًا للتوحيـد الإخناتوني : «**أنت الإله الواحد الذى لا شريك له في الملك**»

فنقـول : أولاً : هـذه الترجمـة في كتـاب : تـاريخ مصـر مـن أقـدم العصـور ترجمة مضللة ، ذلك أن مترجـم العبـارة عـن برسـتد ترجمهـا ترجمـة قرآنيـة إسلامية لفظًا ومعنى ، مما يحدث لبسًا في ذهـن قارئهـا يجعلـه يخلـط بـين الله الواحد الأحد الذي لا شريك له كما عرّف القرآن البشـر بـه وبصـفاته الحسـنى وبين إله إخناتون المزعوم أنه واحد ، آتون .

والعبارة حين تترجم من غير ضخ المعاني القرآنية والألفـاظ الإسـلامية فيهـا تصير : «**أنت الإله الذي لا يوجد له منافس ، أو أنت الإله الذي لا يوجـد إله آخر بجانبه**»

وهـي الترجمـة الـتي اختارهـا العلامـة الـدكتور سـليم حسـن في ترجمتـه للأنشودة في كتاب : فجر الضمير ، وهو لبرستد أيضًا ، وذلك في يقظة ووعـي

---

(١) تاريخ مصر من أقدم العصور ، ص ١٢٩ ، ديانة مصر القديمة ، ص ٣٠٦ .

openkanal.com

فائق من الدكتور سليم حسن لمنع الالتباس الذي قد تحدثه ترجمة المعاني الإخناتونية إلى ألفاظ وعبارات تحمل معاني إسلامية قرآنية .

ثانيًا : بعد هذا التصويب للترجمة لا يمكن فهم العبارة فهمًا صحيحًا إلا بإدراك ومعرفة أن المقصود بالإله حقيقة هو ابنه وممثله الحاكم ، أي : إخناتون نفسه الذي لا يعرف الإله أحد سواه .

فهو بتلاوة الأنشودة في المعابد يغرس في أذهان رعيته انفراده بالحكم والقوة وعدم وجود سلطة إلى جواره ، إذ هو ممثل الإله الوحيد كسلطة حكم وهو الوسيلة الوحيدة لعبادته ومعرفة ما يريده .

ثالثًا : المعنى الذي تحمله هذه العبارة ليس من ابتداع إخناتون ولا هو انفرد به ، وعلى سبيل المثال فقد ورد هذا المعنى كما هو في الأنشودة في نقوش طيبة التي يناجي فيها تحتمس الثالث ، وهو كاهن آموني أصبح حاكمًا على مصر بحيلة اتفق عليها مع كهنة آمون تظهره وكأن آمون نفسه هو الذي اختاره حاكمًا ، هو الآخر!!

هذا المعنى في أنشودة إخناتون جاء كما هو في مناجاة تحتمس الثالث لآمون وهو يمجده لما أنعم عليه به من نصر في حملاته الحربية على أعدائه في الأقاليم الآسيوية .

إذًا ثورة إخناتون لم تكن توحيدًا ولا علاقة لها بالألوهية إلا من باب أن الآلهة في مصر القديمة هي جواز المرور إلى السلطة .

كانت ثورة حاكم منقوص السيادة لاستكمال مظاهر سيادته ، ولأن شرعية الحاكم في مصر القديمة هي الآلهة كان لابد لاستكمال هذه السيادة من اختراع إله جديد لا وسيلة لمعرفته ولا الوصول إليه إلا إخناتون نفسه ليكون بذلك صاحب السلطة الوحيد والسلطان الأوحد .

وبعد إخناتون عادت الأمور إلى ما كانت عليه ، واستعاد آمون منزلته ، وعاد إلى كهنته سلطانهم وقد تنبهوا وتعلموا مما فعله بهم إخناتون فأصبحوا

القوة الأولى في البلاد ، ولم يزل سلطانهم يزداد حتى وصل في عهد رمسيس الثاني ، فرعون المجد والانتصار ، إلى أن : «**لم يكن في البلاد كلها سلطة بشرية تعلو فوق سلطته إلا سلطة الكهنة**»[1].

بقي من المسألة الإخناتونية أن نعرف أن أول من نادى بالتوحيد على الأرض لم ينجب وريثًا ملكيًّا فتزوج من إحدى بناته : عنخس آن با آتون لينجب منها وريثًا تجرى في عروقه الدماء الملكية ويحفظ به العرش في نسله . ولما فشل ترك ابنته وزوّجها من توت عنخ آتون الذي عاد إلى اسمه الأصلي : توت عنخ آمون بعد موت مخترع آتون .

فهل هذا هو التوحيد أم هو الدجل والنصب والاحتيال ؟ !

* * *

(١) قصة الحضارة ، ١٨٢/٢ .

obeikandl.com

التوحيد الخالص

التوحيد في المنهج القرآني هو الصورة الوحيدة للتوحيد التي تفسر الوجود كله تفسيرًا منطقيًّا مقبولاً في العقل والنفس ، فلا العقل يضطرب ولا النفس تتقلقل .

وهو الفهم الوحيد للتوحيد الإلهي الذي يجعله قوة فاعلة في الإنسان وطاقة دافعة له ومنهجًا يسير الحياة ويكون المجتمعات .

وهو التصور الوحيد الذي يستطيع الإنسان أن يفهم من خلاله كيف كان وجوده ، ولماذا كان وجوده ، وإلى أين ينتهي وجوده .

وهو المنهج الوحيد الذي يستطيع به الإنسان فهم العلاقة بينه وبين الكون ودوره فيه والعلاقة بينه وبين الخلق وما يربطه بهم .

والتوحيد القرآني هو المفهوم الوحيد للتوحيد الذي يكون به الإله في المكانة التي لا يقبل العقل ولا تطمئن النفس إلا بوجوده فيها .

وهو التوحيد الذي جاء من الله عز وجل نفسه ، فصار بذلك هو الحقيقة التي تخبر عن الحقيقة ، وللحقيقة قوتها ومطابقتها في النفس ، تعرفها النفس بوجودها فيها وبقدرتها على تفسير الأشياء وربطها في إطار واحد محكم لا خلل فيه ولا اضطراب ولا تناقض .

الإله عز وجل في المنهج القرآني واحد لا متعدد ، أحد لا منقسم ، لا شريك له في ملكه وكونه وخلقه ، وكل إله من دونه هو باطل لا وجود له في الحقيقة ، وإنما هو من مفتريات الضلال البشري ، ولا ند له عز وجل ولا نظير ولا والد له ولا ولد .

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ (الإخلاص: ١-٤)

فالله عز وجل واحد أحد ، كل خلقه محتاج إليه ، لم يلد فهو أبدي ، ولم يولد فهو أزلي ، ولأنه لم يلد ولم يولد فلا يجوز عليه الفناء .

وهو عز وجل بلا نظير ولا شبيه ، وهو الذي يُعبد وحده فلا معبود سواه :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ (الزخرف:٨٤)

والله عز وجل قادر على كل شيء :

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ (الكهف:٤٥)

وإذا أراد عز وجل شيئًا كان :

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (النحل:٤٠)

وهو عز وجل عالم بكل شيء حدث ويحدث وسيحدث بكل تفاصيله وجزئياته :

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (الأنعام:٥٩)

ولا يخفى عليه عز وجل شيء ، جل أو دق ، شيئًا كان أو فكرة ، غيبًا كان أو شهادة ، أظهره صاحبه أو أخفاه ، فكل ما يحدث في خلقه وكونه هو بعلمه وتقديره .

﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ (الرعد:٩)

﴿ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ (الأحزاب:٥٤)

وهو عز وجل الذي خلق الوجود كله وقدره بقدرته .

﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ (الفرقان:٢)

وهو سبحانه يملك الخلق ملك قوة وقدرة وهيمنة وسيطرة .

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ (المائدة:١٨)

والخلق كله والكون كله مفتقر إليه عز وجل ، وانتظامه ووجوده متعلق به سبحانه .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓ ﴾ (فاطر:٤١)

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ ﴾ (البقرة:٢٥٥)

والقانون الذي أوجده الله عز وجل في كونه وخلقه ، والدقة والنظام الذي فيهما هو لحكمة منه سبحانه ليمكن الإنسان من ممارسة مهامه في الكون ، وهذا النظام وهذه الدقة هي إشارات لبديع صنعه عز وجل وتنبيه لوجود الخالق .

﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ (آل عمران:١٩٠)

وهذا الناموس الذي يسيّر به كونه ويجريه فيه لا يحده عز وجل ولا يقيد طلاقة قدرته ، فهو عز وجل :

﴿ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ (البروج:١٦)

وهو سبحانه كما خلق الخلق قادر على إعادتهم بعد الموت وإرجاعهم إليه لحسابهم على ما اعتقدوا وما فعلوا .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ ﴾ (الروم:٢٧)

والله عز وجل في المنهج القرآني هو الذي خلق الخلق ، فهو قريب منهم مطلع عليهم ويعلم ما توسوس به نفوسهم ، وما تخفيه صدورهم .

﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴾ (ق:١٦)

﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴾ (غافر:١٩)

وهم ليسوا بحاجة إلى وسيط ليصلوا إليه أو يسمعهم ويراهم أو ليستجيب لهم .

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (البقرة:١٨٦)

وهو عز وجل الذي يرزقهم ، ولا رازق له ولا لأحد من خلقه سواه .

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ (هود:٦)

وهو عز وجل فوق الزمان وفوق المكان .

﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ (الحديد:٣)

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ (الفرقان:٥٨)

هو سبحانه له وحده الكمال المطلق والصفات الحسنى بإطلاق .

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ (الأعراف:١٨٠)

بإيجاز : الله عز وجل في التوحيد القرآني هو الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، القادر المقتدر ، الفعال لما يريد ، الخالق الرازق ، المنشئ الموجد ، المصرف المدبر ، العليم المحيط ، السميع البصير ، القريب المجيب ، الحي القيوم الذي :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ (الشورى:١١)

فالله عز وجل فى التوحيد الإسلامي هو الموجود الذي يخالف كل موجود سواه ، وكل موجود غيره هو من خلقه ، يعتمد عليه ويفتقر إليه ، فهو عز وجل القوة والفاعل والمهيمن ، وكل ما عداه سبحانه منفعل له مسير بأمره .

وقد يقع البعض في وهم السذاجة فيظن أنه يمكن للعقل البشري أن يصل إلى حقيقة الوجود الإلهي وصفاته وتوحيده وكماله ، إذ يكفي أن ينظر العقل البشري في كل صفة توجد في الخلق ثم يصل بها إلى منتهى كمالها فتكون هذه هي صفة الإله الحق ، ثم تجمع هذه الصفات معًا فيكون مجموعها هو الإله الحق والتوحيد الحقيقي الذى يفسر الوجود : كيف كان ، وكيف وُجد ، وكيف يسير ، وإلى أين ينتهي ، ثم يكون هذا التفسير هو ما يرضي عقل الإنسانية وتستقر به نفسها .

والمسألة ليست بهذه السذاجة ولا بهذه البساطة ، فالتوحيد القرآني الذي هو الكمال المطلق لله عز وجل والانفراد بالقوة والقدرة والفعل والسلطان ، والذي يبدو من قبول العقل له واتساقه معه ومن راحة النفس به واطمئنانها إليه ، يبدو سهلاً قريب المنال هو أعسر الأشياء على العقل البشري أن يصل إليه كما هو .

وليس بعجيب أن تكون أبسط الأشياء هي أبعدها عن قدرة العقل على الوصول إليها لأن الأمر ليس آلية وتراكمًا ، بل هو كلٌّ حقيقي متكامل ، وافتراض وصول العقل إليه كما هو على حقيقته يدخل في باب الاستحالة ، لأنه يتطلب إحاطته بالخلق وما قبل الخلق والعلو على الزمان والمكان ، أي أن يكون خالقًا أو في مقام الخالق .

العقل قد يصل إلى ضرورة وجود إله ، وقد يصل وحده إلى ضرورة أن يتصف هذا الإله بالكمال ، لكنه سيصاب بالعي والحيرة والتخبط والتيه إذا حاول أن يتخطى هذه المنطقة إلى ما بعدها .

فلا يمكن لعقل ولا لعقول البشرية كلها أن تعرف الكمال في صفة واحدة كيف يكون ، وأين تنتهي حدود الكمال في الصفة فيصبح السير بعدها سيراً إلى النقيض ، إلى النقص والقصور وليس إلى الكمال .

وإذا وصل العقل البشري إلى الحدود الحقيقية للكمال في صفة إلهية ، فأنى له أن يعرف أن ما وصل إليه هو الصواب الذي يطابق الحقيقة كما هي؟ لا مناص له من مرشد خارج عنه يعرفه أن ما وصل إليه صحيح .

وإذا افترضنا وصول العقل إلى الصواب في صفة من صفات الألوهية ، فكيف يمكنه أن ينسق بين الصفات كلها لتعطي في النهاية كلاً متكاملاً لا تطغى فيه صفة على أخرى ، ولا يكون الكمال في إحداها خصمًا من رصيد الكمال في الأخرى ، ولا تكون فيه الصفات مجموعة من المتناقضات التي يستحيل الجمع بينها بما يفسرها ويجعلها متسقة مقبولة .

ولا مفر من الأمثلة حتى يمكن أن نـدرك عسـر وصـول العقـل البشـري إلى التوحيد الحقيقي الذى يبحث عنـه ويتـوق إليـه واسـتحالته عليـه ، ولنقـدر منّـة الإسلام والمنهج القرآني المحفوظ على الإنسانية حق قدرها .

فلاسفة اليونان ، جبـابرة العقـول وأصـحاب النظـر العقلـي الخـالص وأبنـاء الحضارة المعجزة كما يقول بعض المجاذيب ، فشـلوا في الوصـول إلى حقيقـة الألوهية وإلى كيف يكون الكمال الإلهي .

أرسطو ، وغيره من الفلاسفة الإلهيين كمـا يسـمونهم ، وصـل بعقلـه إلى أنـه لابد للكون المتحرك المنظم من إله ، ووصل إلى أن هـذا الإلـه لابـد أن يكـون متصفًا بالكمال ، وحين حاول أن يحدد ويفصل ما هو هذا الكمال الذي ينبغـي أن يكون عليه الإله حتى يستحق أن يكون إلهًا ، سار مع خط الكمال في الصـفة الواحدة وظل يسير بعقله ويسـير حتـى انتهـى الكمـال وخـرج منـه إلى العجـز والنقص وهو لا يدري ، لأن عقله لم يستطع أن يدرك أن الكمال في الصفة هـو حقيقة وليس افتراضًـا ، وأن لــه حــدًّا إذا تعدتـه الصـفة انقلـب ليصـير قصـورًا ونقصًا .

فمحرك الكون الأكبر لابد أن يكون كاملاً كمـالاً مطلقًـا ، ولـذلك : «**لـيس في مقدوره أن يرغب بأي شـيء ، فهـو لـذلك لا يفعـل شـيئًا . . وعملـه الوحيد هو التفكير في جوهر الأشياء ، وبما أنه هو نفسـه جـوهر جميـع الأشياء وصورة جميع الصور فإن وظيفته الوحيدة هي الـتفكير في ذاتـه ، فالإله لا يفعل شيئًا وليست له رغبات ولا إرادة ولا هدف**»[1].

ولأنه كامل فكل أثره وفعلـه في خلقـه وكونـه أنـه : «**يحـرك العـالم كمـا يحرك المحبوب المحب**»[2]

---

(١) ول ديورانت : قصة الفلسفة ، ص ١١٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١١٤ .

أي أن العالم يتحرك به شوقًا إليه وليس بإرادته الفاعلة فيه ، لأنه ليس له إرادة ، إذ هو منزه عنها .

فأراد هذا العقل الجبار أن يصف الإله بكمال العلم الكلي الشامل ، فأدى به افتقاد الوحي المرشد وقصور العقل المقيد عن معرفة صفات الإله المطلق وما يجب له وما يستحيل في حقه إلى أن يصم الإله بعلم هو للجهل أقرب ، فهو لا يعرف به كونه ولا مخلوقاته وما يحدث فيها لأنه كامل وكماله يجعله أعلى من أن يفكر فيها ويجعلها أدنى من أن يعرفها ، فبدأ أرسطو بالعلم وسار به تفكيره في كمال العلم إلى الوصول بالإله إلى الجهل التام ، وأراد تنزيه الإله ومفارقته لخلقه فانتهى إلى أن جعله شيئًا وهميًّا ، لا يريد ولا يفعل ولا يقدر ولا يحرك ولا يوجد معدومًا ولا يعدم موجودًا ، لأن ذلك كله حركة والإله يجب أن يتنزه عن الحركة .

وهذا مثال آخر يبين كيف يؤدي الجهل بالتوحيد على ما هو عليه في حقيقته كما جاء به القرآن إلى اضطراب الوجود والكون أمام الإنسان وحيرته فيه وانقطاعه أمامه وعدم قدرته على التعامل معه ، مما لا سبيل إلى الخروج منه لكي يقر العقل وتطمئن النفس إلا بإلغاء الوجود الإلهي كله كما فعل الغرب حتى يستطيع أن يتعامل مع الكون وقد أحله محل الإله ، والكون يمَكِّنه من ذلك بما أودع الله عز وجل فيه من وحدة ، هي أثر من آثار وحدانيته .

الإله خلق الكون لأنه قادر ، ولكن كيف خلقه ، ومتى خلقه ، ولماذا خلقه؟

لا يستطيع عالم ولا إنسان أن يتعامل مع الكون ويسير فيه أو يسخره إلا بعد أن يعرف إجابة هذه الأسئلة إجابة ترضيه ، إما بمطابقتها للحقيقة وإما بإلغاء ما لا يقدر على فهمه وتجاوزه والتعامل مع الموجود المحسوس وعدم البحث عما وراءه .

فالكون عند الفلاسفة قديم لأن الإله قديم ، والإله قادر ولأنه قادر يجب أن يكون الكون صادرًا عنه ، وإذا كان صادرًا عنه فلابد أن يكون قديمًا كما أن الإله

قديم ، وإذا كان الكون حادثًا ، أي كان الإله موجودًا ولم يكن الكون موجودًا ثم وجد ، فإذا كان الإله قادرًا فلماذا لم يوجد الكون مع الإله طالما أنه قادر؟

إن إيجاد الكون وخلقه وحدوثه تغير ، والإله لا يتغير ، ولأن الإله لا يتغير فقدرته لا تتغير ، فلم يكن غير قادر على خلق الكون ثم أصبح قادرًا فخلقه ، بل هو قادر في كل زمان ، إذًا لابد أن يكون الكون موجودًا منذ كان الإله موجودًا .

في ميزان العقل المحض هو من جهة تفكير منطقي سليم يربط المقدمات بالنتائج ، ولكنه من جهة أخرى أمر مقلق للنفس محير لها جالب للاضطراب والتيه ، لأنه إذا كان الكون قديمًا فهو مساو لخالقه مكافئ له ، وهذا محال .

اضطراب ولبس وخلط وشلل للعقل لا حد له ولا مخرج منه ، ولا قدرة للعقل الإنساني معه على التعامل مع الكون أو فهم قوانينه أو معرفة المراد منه فيه ، وألغاز محيرة لا يمكن للإنسان أن ينطلق إلا بعد أن يعرف كيف يحلها أو بعد أن يلقيها خلف ظهره كما فعل الغرب ليستريح ، ثم تتراكم آثار هذا الإلقاء على مسيرة البشر في صورة الثورات النفسية والاجتماعية ، والتمزق الروحي والاغتراب الكوني ، والإفساد في الخلق وتفتيت المجتمعات ، والانحلال الشامل والشذوذ عن طبائع الخلق الفطرية والانتماء إلى البشرية .

فهذه كلها وليدة الموقف الأم وتوابعه : إلقاء كل شيء خلف الظهر والتعامل فقط مع الآني الوقتي المحسوس المشاهد ، وهي كلها سمات أصيلة لعالم الغرب وليست انحرافًا عنه ولا شذوذًا فيه ، ولا مكان فيه إلا لمن اتسم بها أو توافق معها ، يقول ألكسيس كاريل : «**يجب أن يكون الإنسان مقياسًا لكل شيء ، ولكن الواقع هو عكس ذلك ، فهو غريب في العالم الذى ابتدعه . . إن المادية الدورية التي تتسم بها حضارتنا لا تقاوم السمو العقلي فقط ، بل إنها تسحق أيضًا الشخص العاطفي واللطيف والضعيف والوحيد وأولئك الذين يحبون الجمال ويبحثون عن أشياء أخرى غير المال**»[1].

---

(١) ألكسيس كاريل : الإنسان ذلك المجهول ، ص ٣٠ ، ٢٤١ .

هذه الألغاز المحيرة والاضطراب والبلبلة الكابحة للعقل المقيدة له ، الممزقة للنفس المشتتة لها والتي لا قرار إلا بحلها ، حلها المنهج القرآني بحل بسيط سهل ، لكنه يوزن في ميزان البشرية بآلاف السنين .

لم يفطن عقل أرسطو ولا عقول كل الفلاسفة من بعده إلى أنه إلى جوار القدرة هناك صفة إلهية أخرى هي التي تحل هذا اللغز وتريح العقل والنفس ، هي صفة الإرادة ، وإذا كان بعضهم قد فطن إلى هذه الصفة ، فمن المؤكد أن أحدًا منهم لم يستطع التوفيق بينها وبين صفة القدرة ، ولا تفسير دورها في إيجاد العالم بما يرضي العقل والنفس .

«فالله عز وجل له إرادة ، وإرادته قديمة لا تتغير ، واقتضت إرادته القديمة أن يخلق العالم بقدرته القديمة فى الوقت الذى خلقه فيه»[1].

والقرآن لا يحتاج إلى كل هذا الدوران ، فقد حل هذا اللغز الذي تاهت فيه أعظم العقول بكلمتين اثنتين .

﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾

(الأحقاف:٣)

فحل هذا اللغز الكوني وتفسير خلق العالم في الوقت الذي خلقه عز وجل فيه هو هذا الأجل المسمى أو : **«الزمان المعين»**[2] الذي شاءت إرادة الله أن يوجده فيه .

مجرد إعادة تفسير للصفات الإلهية ، وتنظيم لها ولوضع الكون والخلق بالنسبة لله عز وجل ، ولكنه تفسير وتنظيم هو فتح في عالم البشرية ينبغي أن يقدر بمقدار المسيرة الطويلة الشاقة المتشعبة للبشرية بحثًا عن الحقيقة التي يقبلها العقل وترضى بها النفس ولمَّا تصل إليها إلا بهذا المنهج القرآني .

* * *

(١) الإمام الغزالي : تهافت الفلاسفة ، ص٩٦ .

(٢) الشيخ نديم الجسر : قصة الإيمان ، ص ٢٨٣ .

آثار التوحيد القرآني

التوحيد الخالص في المنهج القرآنى بالغ الأثر على الإنسان ، عقله ونفسه ، ودوافعه ، ورؤيته للأشياء وتعامله معها ، وعلى البشرية والإنسانية كلها في مسيرتها وحركتها .

١- فهم الوجود والاستقرار العقلي في التعامل معه :

أول أثر للتوحيد على الإنسان هو تعريفه بحقيقة وضعه في الكون وموضعه من الإله ، وهدايته إلى تفسير مريح لعقله ونفسه .

والبساطة في التوحيد هي إحدى متطلبات العقل والنفس البشرية ، لأن النفس مفطورة على معرفة الحقائق بمطابقتها لما فيها ، والحقائق هي أبسط الأشياء ، والبساطة هي سمة الحقيقة ، والقدر الذي يتعقد به ما يتعامل معه الإنسان هو نفسه القدر الذي تنفر منه نفسه ويأباه عقله ، وهو القدر نفسه الذي يبتعد به الشيء عن وقع الحقيقة في عقله ونفسه .

ولأن الحقيقة هي البساطة ، والتعقيد هو علامة بعده عنها ، فإن علماء الطبيعيات يقولون إنه إذا وجد نموذجان أو نظريتان لتفسير شيء واحد واحتمل كل منهما الصحة ولم يستطع العلم الحكم بترجيح إحداهما على الأخرى ، فالصحيح منهما والأقرب للحقيقة هو الأبسط والأقل تعقيداً .

فالتوحيد الشامل الخالص المطلق هو سبيل العقل والنفس للراحة والقرار ، لأنه يحقق لهما علامة الحقيقة المطبوعة فيهما ، وهي البساطة والتفسير غير المعقد ولا المتضارب للوجود .

حسنا! قد علم الإنسان التوحيد وأن الكون له إله واحد مطلق القدرة محيط العلم ، وأن الوجود كله مفتقر إليه ويسير بأمره ، فماذا بعد؟

الأمر بالضبط كسائر في طريق لا يعلم من أين ابتدأ وإلى أين ينتهي وأين مكانه منه ومما حوله ، وطريقه يخلو من الأدلة والعلامات الإرشادية ، فعقله مضطرب مشتت ونفسه حائرة قلقة لا يقر لهما قرار في هذا الطريق الذي يسير فيه ولا يعلم إلى أين سيصل به .

والتوحيد هنا بمثابة إنارة للطريق وخريطة له تحدد موقعه وبدايته ونهايته وإلى أي غاية سينتهي ، وهو علامات إرشادية في منعطفات الطريق حتى لا يضل السائر فيه ، فحينئذ يهدأ العقل وتقر النفس ويفرغ الإنسان بعقله ونفسه للمسيرة نفسها ولإزالة عوائق الطريق وتمهيد جنباته وللإنجاز والإثمار .

فالتوحيد يخلق حالة من الاستقرار العقلي والنفسي تشبه استقرار الذي كان تائهًا في طريق ثم وجد خريطة ترشده إلى موقع الطريق وموضعه منه وتدله على اتجاه السير .

٢- التوحيد والعلم :

قد يقال : الغرب لم يعرف التوحيد ولم يصل إليه ، ومع ذلك سخر الكون وعمر الأرض ولم يكن افتقاده للتوحيد عائقًا أمامه ولا معطلاً لمسيرته .

ونقول : بل إن الغرب لم يعمر الأرض ولم يسخر ما سخر من الكون إلا بهذا التوحيد!

ويقال : كيف ؟ أتريد أن تجعل الغرب الذي يتراوح بين التثليث والإلحاد الكامل أقام نهضته بالتوحيد؟

ونقول : نعم!

فالغرب قد هدم بالتراكم النموذج القديم المغلق ، وإن ظلت بعض آثاره ملازمة له لأنه منها خرج وبها تكون ، والنموذج القديم المغلق كان التثليث والرؤية الأوغسطينية اللاهوتية هي عنوانه وفصوله وهوامشه .

وأحل الغرب وحدات جديدة محل وحدات النموذج القديم ، وفي هذا النموذج الجديد المفتوح نزع الغرب التثليث وتوابعه من مسيرة العلم وفصلها عنه ، فصارت مسيرة حرة غير مقيدة .

وسار الغرب مع العلم والعقل على الجانب الكوني ، والعلم والعقل لكي يفهم كيف يسير الكون ويصل إلى العلاقة بين أجزائه ويكشف سر قوانينه لابد من أن يفترض فيه التوحيد ، فلم يكن في مقدور الغرب ولا أحد غيره أن يفسر حركة الكواكب دون أن يوحد بينها وبين الشمس في مجموعة واحدة ، وبين الشمس وكل الأفلاك في السماء في منظومة واحدة يبحث العلم والعقل عن القانون الذي يحكمها كلها في آن واحد ويهيمن على حركتها وعلاقاتها .

فالعلم كان يعرف وجود وحدة تجمع هذه المتفرقات وتنسق بينها قبل إثباتها رياضيًّا وفلكيًّا ، فلم يكن العلم يبحث في وحدات منفصلة فاكتشف أنها وحدة واحدة ، بل فرضت عليه قوانين الكون وتركيبه أن تكون هذه الوحدة موجودة أمامه ، يعرفها قبل أن يستطيع إثباتها ، ولا يستطيع تفسير حركة الأفلاك ونظام الكون إلا بافتراضها ، لأنه بدونها يكون ثمة خلل في تركيب الكون ونظامه ، وهذا الخلل غير موجود ، فـ : «**مجرد التفكير في البحث عن قانون يفترض قبلاً أن الطبيعة مطردة منتظمة تخضع لقانون ما ، هو الذي سنبحث عنه**»[1].

ما نريد أن نقوله هو أنه إذا كنا قلنا من قبل إن العلم سيؤدي إلى توحيد الكون شاء العلماء أم أبوا ، فإن التوحيد نفسه هو الذي يفرض على العلم السير في اتجاهه كحقيقة في تركيب الكون ونظامه لا يستطيع العلم تجاهلها وإلا وقفت مسيرته .

والتوحيد يفرض على العالم البحث عنه وافتراضه قبل أن يصل إليه ، فالتوحيد جزء من ماهية العلم والعالم الطبيعي ، وهو الطاقة التي تشده إلى استكمال مسيرة العلم حتى يصل إلى التوحيد الكامل .

ولذلك كان الغرب بين خيارين ، إما افتراض التوحيد والسير معه ولو على المستوى المادي أو توقف مسيرة العلم التي بدأها ، لأنه بدونه يصير الكون

---

(١) العلم والاغتراب والحرية ، ص ٦٣ .

الفيزيائي بعثرة وشتاتًا وأشياء لا علاقة بينها ولا يمكن فهمها ، وهو ما يعني استحالة أن يكون هناك علم أصلاً ، لأن العلم في جوهره بحث عن الروابط بين الأشياء .

إذًا العلم الغربى تقدم لتسليمه بالأمر الواقع والاعتراف بالتوحيد أو وجود قوة واحدة كحقيقة ماثلة في الكون يعتمد تركيبه عليها ويقوم نظامه بها ولا يمكن تجاهلها ، وإن رفض ردها إلى الإله الواحد لأن في هذا الرد إلغاء للغرب كله .

وهنا ملاحظة ينبغي أن تذكر ، وهي أن كل نظرية علمية في الغرب تبدأ علمية خالصة ، ثم يتم تصعيدها فلسفيًّا واجتماعيًّا وتنظيرها لتكون جزءًا من تكوينه ومن رؤيته للكون وفهمه للوجود ، ما عدا هذه الوحدة الظاهرة في تركيب الكون والتي يصر ويجاهد من أجل حصرها في الإطار المادي ويأبى ، عن وعي أو بغير وعي ، وضعها كغيرها من حقائق العلم كجزء مكون للتصور والرؤية ، إذ لو فعل وصعّد هذا التوحيد الكوني المادي إلى مستواه المعنوي والفلسفي لكان حكمًا بنقل الغرب كله إلى الإسلام .

ونعود فنقول : التوحيد هو القوة الدافعة للعلم لأنه الإطار الذي يتحرك العلم فيه والغاية التي لا يمكن أن يتقدم العلم خطوة إلا إذا افترض وجوده ، وهو المرقاة التي يرتقي فيها العلم من درجة توحيدية يفترضها إلى درجة تليها ، وتسلمه كل خطوة توحيد فيه إلى لاحقة لها يعرف وجودها مسبقًا ، حتى يصل إلى التوحيد الشامل الكامل الذي يعلم حق العلم أنه موجود ويبحث عنه في القوة الواحدة التي يخضع لها الكون كله وينتظم بها .

والأمر نفسه في التوحيد القرآني الخالص الشامل ، فالتوحيد القرآني يعلم الإنسان أن الله عز وجل واحد لا شريك له وأنه الخالق للكون بكل ما فيه وهو صاحب القدرة المطلقة فيه ، ولأن الله عز وجل واحد ، والكون كله خلقه ، فالقانون والنظام الذي يسير به الإله الواحد الكون كله واحد ، وأحد مهام

الإنسان هي النظر في الكون والبحث فيه وتعقب القوانين المبثوثة فيه لتوحيدها في قوة واحدة وردها إلى الإله الواحد .

فالقرآن يضع التوحيد أمام البشرية ويعلمها بوجوده ووجود آثاره في الكون ونظامه وحركته وعلاقاته ، ثم يأمر البشر بالسير والنظر في الكون للوصول إليه .

إذًا التوحيد في القرآن حقيقة شاملة ماثلة في الكون ، يؤمن بها المسلم عقائديًا ويوقن بوجودها ماديًا ، وهو مطالب بالسير والنظر في الكون تحقيقًا لمهمته في الأرض ، وفي أثناء سيره ونظره هو مطالب باستلهام التوحيد العقائدي في الوصول إلى التوحيد المادي للكون ، ليطمئن بهذا إلى ذاك ويجمعهما معًا .

فالمنظومة القرآنية تعلم الإنسان أن في الكون قانونًا هو السنن .

﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلاً ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلاً ﴾ (فاطر:٤٣) .

وهو مطالب بالوصول إلى هذا القانون .

والقرآن يعلمه أن في الكون توحيدًا ، وأنه مطالب بمعرفة هذا التوحيد الذي لا يمكن معرفته إلا من خلال العلم الكوني الذي ينتقل فيه من وحدة إلى وحدة ، إلى أن ينتهي إلى التوحيد الشامل .

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ (يونس:١٠١)

﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾

(فصلت:٥٣).

ونقف عند الآية الأخيرة وقفة : ﴿ سَنُرِيهِمۡ ﴾ وليس «**سيرون**» ، بما يعني أن الإنسان ، مسلمًا كان أو غير مسلم ، مؤمنًا بالتوحيد أو منكرًا له ، سيُرى ، بضم الياء ، التوحيد ووحدانية الله في الكون وفي نفسه شاء أم أبى ، وهو ما يعني بدوره أنه ما من عالم ينظر في الآفاق أو في الإنسان إلا ويرى التوحيد وسينتهي إليه ، وهو ما يؤكده العلم نفسه ، وأنه ما من علم يمكنه أن يتقدم

ويسير إلا إذا عرف أو افترض أن هناك توحيدًا في الآفاق يوجد كحقيقة ماثلة فيها مكونة لبنيتها .

فالتوحيد موجود أمام المسلم يوقن أنه الحقيقة ويعرف من الوحي المعصوم أن هذه الحقيقة ماثلة بآثارها في الكون مبثوثة في تركيبه ونظامه ، والوحي يدفعه لاكتشافها ورؤية وحدانية الله عز وجل فيها ، فيطمئن قلبه بوحدانية الكون إلى وحدانية خالقه ، وتكون له دليلاً يدعو به إليه .

وهذا هو ما فهمه العلماء المسلمون ورسخته المنظومة في أذهانهم ، فكانت هذه هي الطاقة الدافعة لهم لاستكشاف الكون ، وفي الوقت نفسه الحافز الذي يدفعهم ويعضدهم برؤيتهم له ماثلاً في الكون أمامهم ويتعاملون معه .

يقول الخوارزمي الرياضي : «**وجدت الوحدة في كل عدد ، لأن الوحدة هي الجذر لكل عدد وخارج العدد ، وهكذا الله موجود في كل شيء ، فأنى ولى المسلم وجهه فثم وجه الله**»[1].

ويقول أبو عبد الله البتانى الفلكى في مقدمة : الزيج الصابئ [2]: «**إن أشرف العلوم منزلة وأسناها مرتبة وأعلقها بالقلب وألمعها بالنفس وأسدها تحديدًا للفكر والنظر وتذكية للفهم ورياضة للعقل ، بعد العلم بما لا يسع الإنسان جهله من شرائع الدين وسنته ، علم صناعة النجوم ، لما في ذلك من جسيم الحظ وعظيم الانتفاع بمعرفة مدة السنين والشهور والمواقيت وفصول الأزمان ، وزيادة النهار والليل ونقصانها ، ومواضع الشمس والقمر وكسوفهما ، وسير الكواكب في استقامتها ورجوعها وتغير أشكالها ومراتب أفلاكها وسائر مناسباتها ، إلى ما يدرك من أنعم النظر وأدام الفكر فيه من إثبات التوحيد ومعرفة كنه عظمة الخالق وسعة حكمته**

---

(١) زيغريد هونكه : العقيدة والمعرفة ، ص ١٨٨ .

(٢) زين العابدين متولى : علم الفلك عند العرب والمسلمين ، ١/١٢٤ .

وجليل قدرته ولطيف صنعه ، قال عز وجل : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (آل عمران: ١٩٠).

الفرق بين التوحيد الذي هو طاقة في المنظومة القرآنية والتوحيد الذي هو جاذب وإطار لا يمكن الخروج منه في التعامل مع الكون في مسيرة العلم الغربى ، أن التوحيد الإسلامي واضح معروف محدد السمات والقسمات يشمل كل شيء ولا يتعارض فيه عقل الإنسان وما يصل إليه على مستوى الكون والطبيعة مع ما هو مؤمن به ومستقر في نفسه على المستوى العقائدي ، فهو متجانس موحد غير ممزق ولا مشتت ، فالتوحيد عنده حقيقة واقعة في الكون تؤكد عقيدته الراسخة في النفس .

أما التوحيد الذي هو جاذب للعلم وإطار له على الجانب الغربي ، فهو غائم غامض أو ناقص ، يُجبر العالم الغربي على افتراضه كحقيقة كونية ويحسه في نفسه ، يشده إليه على مستوى الماهية والتكوين الداخلي حتى يكون متناسقًا ويوحد بين عقله ونفسه ولكنه لا يستطيع الاعتراف به على المستوى العقائدي والتصوري .

والفرق بين الطاقة هنا والطاقة هناك هو الفرق بين الوضوح والغموض ، بين القوة الدافعة المحركة وبين الشد الجاذب في خفوت للماهية المطموسة ، بين الطاقة المركزة الموحدة والطاقة المبعثرة المشتتة ، بين التعامل مع الكون والسير والبحث فيه والنظر إليه من منطلق عقيدة علوية وبين اضطرار العالم الغربي للتعامل مع التوحيد كحقيقة كونية تجبره على التسليم بها يومًا بعد يوم .

٣- سلامة التكوين الداخلي للإنسان :

هذا هو الهدف الذي لم تستطع عقيدة ولا فلسفة ولا حضارة قبل التوحيد القرآني ولا بعده أن تصل إليه ، سلامة التكوين الداخلي للإنسان بكل ما فيه من الإنسان .

سلامة تكوين النفس بإيقانها بإله واحد قادر لا ينازعه أحد السلطان ، وأن كل شيء غيره مخلوق له ، فأصبح الإنسان بذلك عبداً لإله واحد غير مشتت ولا منقسم ولا حائر بين الآلهة ، تتصارع فيما بينها ، وتتصارع عليه ، ويصاب هو بالتمزق والحيرة بين مطالبها المخترعة ، فيتملق هذا حينا ويسترضي ذاك آخر .

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ (الزمر:٢٩).

فالإنسان بالتوحيد يؤمن بإله واحد لا شريك له ، ولا ند ولا نظير ، ولا والد له ولا ولد ، وحده له الملك ، وله وحده السلطان والحمد .

فإذا أيقن الإنسان بالإله الواحد ، الذي له القدرة ولا حول و لا طول لأحد غيره ، قرت نفسه وانتقلت من الحيرة والتشتت إلى السكينة والطمأنينة .

فالنفس المؤمنة بالله الواحد الأحد الذي لا شريك له ولا ولد ، المنفرد بالسلطان هي النفس المطمئنة التي تغشاها السكينة ، النفس التي يبحث عنها العالم ولا يستطيع الوصول إليها ، يؤلف النظريات والمجلدات ثم تنتهي هباءً منثوراً ونفس الإنسان كما هي ، حائرة قلقة ممزقة دائرة بين العبث واللا معقول والعدم والبحث عن هدف لا تعرفه ولا تعرف كيف تصل إليه ، فهي تنتظره انتظار جودو الذي لا يأتي أبدًا .

ومن بديع القرآن أنه لم يصف النفس التي بلغت الغاية ونالت الرضا وسعدت في الدنيا وتأكدت هناءتها في الآخرة بأي وصف إلا أنها النفس المطمئنة فقط .

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ (الفجر:٢٧-٣٠).

وسلامة التكوين الروحي للإنسان حين يؤمن بإله واحد مفارق لخلقه ليس كمثلة شيء ، فهو الخالق وحده ، المدبر وحده ، المتصرف وحده ، الذي خلق الإنسان وعلمه في الملأ الأعلى .

فهذه هي عقيدة الروح الأسمى التي تصل الإنسان بالملأ الأعلى وتجعله يدرك ويعي أنه يرتفع بها إلى مرتبة الإنسان الذي هو نفخة من روح الله عز وجل .

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ (ص: ٧١، ٧٢).

فالله عز وجل هو الذي خلقه بيديه وجعل فيه روحًا ، هي من الملأ الأعلى ، تصله به وتجعله يسمو إلى العلا ، إلى حيث تستشرف الروح داخل الإنسان وتطلب وتبحث وتنزع كما ينزع كل فرع إلى أصله .

فهذه الروح التي هى نفخة من روح الله عز وجل إذا آمنت بالله الذي أوجدها وعرفته واهتدت به آبت إلى الملأ الأعلى ، إلى الجنات في حضرة خالقها وعنايته وبالقرب من أصلها ومنبتها الذي منه نبتت وفيه وجدت .

وفي التوحيد سلامة التكوين الأخلاقي والسلوكي للإنسان والمجتمع بعبادته إلهًا واحدًا سميعًا بصيرًا ، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، وهو عليم بذات الصدور ويعلم ما توسوس به نفس الإنسان وهو أقرب إليه من حبل الوريد .

فإذا آمن الإنسان بالتوحيد استوى ظاهره وباطنه ، واتفقت سريرته وعلانيته ، وسمت أخلاقه عن الدنايا أمام الناس ومن خلفهم ، لأن هناك عليمًا قديرًا لا تحجب علمه الأستار ولا يخفى عليه ما استكن في النفس أو ما يفعله الإنسان من وراء الجدران .

فبالتوحيد لا نفاق ولا ازدواج في النفس ولا في التعامل مع الخلق .

فالتوحيد الذي هو الإيمان بالله الواحد المطلق الكمال السميع البصير يربي في المؤمن الرقابة الذاتية على نفسه ، يؤنبها ويهذبها ويحاسبها قبل أن تُحاسب ، لأن حسابه لها تقويم يتقي به الحساب العسير يوم القيامة .

وهذه الرقابة الذاتية تشمل المؤمن في أخلاقه وفي سلوكه وفي علمه ، وفي شؤونه مع الخالق ومع الخلق ومع الكون ومع كل ما يحيط به أويصدر عنه .

لذلك لم يكن غريبًا أن أصبحت : «**الدقة والضبط أساسًا من أسس العلم كله عند المسلمين سواء في علوم الدين أو في علوم الدنيا ، وسواء في الناحية النظرية أو التطبيقية ، فإننا نجد أن الدقة والضبط هما الأساس في كل العلم الإسلامي والجهد الحضاري الإسلامي كله**»[1].

هذا الضبط وهذه الدقة هي عنوان الرقابة الذاتية للإنسان على نفسه وعلى فكره وجوارحه وكل ما يصدر عنه ، وهذه الرقابة الذاتية هي نتاج العبودية لله الحق ، الذي الدقة والرقابة على النفس منه أمر وإليه قربى وبه إيمان وله حب .

٤- تحرير الإرادة الإنسانية :

من الآثار العميقة للتوحيد الشامل تحرير الإنسانية ، تحريرها من العبودية لغير الله عز وجل ، لأنه لا إله غيره ولا يملك القدرة والسلطان سواه .

﴿ **وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ** ﴾ (ص:٦٥).

فالعبودية لله عز وجل وحده ، والطاعة له وحده ، وكل طاعة لسواه باطلة ما لم تكن أثرًا من آثار طاعته هو عز وجل .

﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ** ﴾

(النساء:٥٩).

وهذه العبودية له عز وجل وحده تحرير للإنسان من العبودية لكل أحد سواه ، لأنه لا أحد يملك القوة العلو والهيمنة سواه .

---

(١) دكتور حسين مؤنس : دراسات في الحضارة الإسلامية بمناسبة القرن الخامس عشر الهجرى ، ١/٥ .

وشهادة الدخول في الإسلام إنما تنطوي في أحد جزءيها على الإيمان بالله والإقرار له بالوحدانية والسلطان ، وتنطوي في جزئها الأول على نفي الألوهية ، أي نفي العلو والقوة والسلطان ، عن كل ما عدا الله عز وجل .

لا إله إلا الله

وبذلك يربي التوحيد في نفس المؤمن به العزة والشرف وينزع منه الإحساس بالضعة أو النقص والقصور ، لأن كل ما سوى الله عز وجل مخلوق له ، فهم جميعًا سواء .

والتوحيد تحرير للإنسان أن يكون عبدًا يؤمر ويُنهى ممن هو سوى الله عز وجل ، فلا أمر ولا نهي ولا تشريع إلا لله عز وجل ، ولا يقاد الإنسان إلا بأمر الله جل وعلا وحده .

﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (المائدة:٥٠)

﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ (يوسف:٤٠)

والتوحيد تحرير للإرادة الإنسانية من قهر الخوف وسلطانه على العقل والنفس ، لأن كل قوي فالله أقوى منه ، وكل جبار فالله فوقه وإن شاء قصمه .

فإذا آمن المؤمن بالتوحيد الشامل العميق واستقر في نفسه وعقله ، تضاءل فيهما سلطان كل ما سوى الله عز وجل وخلع سطوته منهما وحرر من خوفه إرادته ، لذلك كان الإيمان بالله عز وجل هو طاقة الكفر بالطاغوت ، لا طاقة للكفر به سواه .

﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ﴾ (البقرة:٢٥٦)

فمن آمن بالله عز وجل سمت إرادته وتحررت فلم يداهن الطاغوت ، بل ولا تجنبه ، بل يكفر به غير خائف ولا هياب ، لأن معه إلهًا يحفظه ويرعاه ويدافع عنه بقدر إيمانه به .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ (الحج:٣٨)

وتعلم المنظومة المسلم أن لا يخشى بطش جبار ، لأن الله عز وجل معه يسمع ويرى ، وهو فوق كل جبار ، به محيط ، وعليه قادر ، وله قاهر .

﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ۝٤٥ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ (طه:٤٥،٤٦)

وبهذا الفهم الذي تربيه المنظومة القرآنية في الإنسان يتحرر تحررًا شاملاً عميقًا من كل خوف وقهر ، ومن كل ما عدا الله عز وجل ، فلو اجتمعت عليه الدنيا كلها كان موقنًا أنه لن تصيبه بسوء لأن الله هو مولاه وناصره ، وإن إصابته بسوء فلن تصيبه إلا بما كتبه الله عز وجل عليه .

﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴾ (آل عمران:١٧٣)

والتوحيد تحرير للإرادة الإنسانية من الهواجس والوساوس التي تنتاب الإنسان في حركة حياته وتكبله خوف الفاقة أو حرصًا على الحياة .

فالله عز وجل هو الخالق وحده ، ولا قدرة لمخلوق على ما خلقه إلا بمشيئته وتقديره ، وهو عز وجل الرازق ، وماكتب لعباده من رزق فلا قدرة لأحد على منعه ، وما منعه فلا سبيل لأحد إلى جلبه .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ﴾ (الروم:٤٠)

فالتوحيد تحرير لإرادة الإنسان من الهواجس والوساوس التي تنتابه خوفًا على رزقه أو على حياته لأنهما بيد الله عز وجل وحده ، والله قد أحاط بكل شيء علمًا ولن يحدث في كونه شيء إلا بأمره وعلمه وتقديره ، والإنسان لن يصيبه إلا ما كتب الله له ، ولن يخرج أمر الناس عما قدره عز وجل وسجله ، فقد رفعت الأقلام وجفت الصحف .

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآ ﴾ (الحديد:٢٢)

فالتوحيد يعيد تكوين الإنسان ليخلقه من جديد ، الإنسان الأسمى والإرادة الحرة والنفس الواثقة المطمئنة كما ينبغي له أن يكون ، وكما تطمح إلى صورته هذه العقول ، وتبحث عن كيفية إيجاده في هذه الصورة العلوية الفلسفات والنظريات .

وقبل ذلك كله التوحيد تحرير لإرادة الإنسان من نفسه وأهوائه ، والإنسان قد يستطيع أن يقاوم كل قوة خارجة ويقهرها ، ولكنه ينهزم دائمًا أمام نفسه وأهوائه وشهواته ، هذه القوة الداخلية العارمة الثائرة التي فشلت جميع العقائد والقوانين والسلطات في كبحها وتمكين الإنسان من الانتصار عليها ، فأقرت بفشلها وقصورها وعلو ذلك عن طاقتها ، فالتوحيد يربي الإنسان على الرقابة الذاتية لنفسه ، لأن الله عز وجل مطلع عليه وهناك تسجيل دقيق لكل ما يصدر عنه .

﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (ق:١٨)

والتوحيد يربي الإنسان على أنه سوف يحاسب على ما سُجل ودُون حسابًا عسيرا يوم المرجع والمعاد ، يوم توفى كل نفس ما عملت .

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (البقرة:٢٨١)

هذا التوحيد وهذه الرقابة وهذا الإيقان العميق بالحساب ، وما يترتب عليه من صورة واضحة مفصلة في الذهن للجنة والنار التي ينفرد بها الإسلام ، هو تحرير لإرادة الإنسان من نفسه وأهوائه وجموحه وشهواته ، وهو تربية له مستديمة لا تنقطع على حساب نفسه وضبطها .

وهذا ما لم تستطع الوصول إليه قوانين الدنيا كلها وتشريعات البشر ونظرياتهم وبرامجهم ، وفشلوا في تحقيقه فشلاً ذريعًا ، ولا أثر لعلومهم فيه سوى زيادته وطغيانه .

لذلك كان تحرير إرادة الإنسان من نفسه هو خصيصة التوحيد وحده وأثره وحده ، لأنه المنهج الوحيد الذي استطاع أن يجعل كبح جماح الإنسان وتهذيبه مهمته هو نفسه ومن داخله وبرضاه ، يطلبه ويجاهد نفسه في سبيله وليس مجرد أثر لقوة خارجة عنه ، إن قيدت ظاهره عجزت عن باطنه ، وإن حكمت علانيته قصرت عن سريرته .

والمنظومة القرآنية تحرص على غرس هذا التحرير للإنسان من نفسه وتثبيته وإروائه في كل جزئية منها ، آية أو سورة ، قصة أو عظة ، أمرًا أو نهيًا ، وبطريقة شاملة تتناوله من جميع الجوانب ، أما الآية المنهج المتكامل في تحرير الإرادة الإنسانية فهي قوله تعالى :

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ (النازعات: ٤٠، ٤١)

ونقف مرة أخرى لنتساءل : هذا الإنسان الذي يكونه التوحيد ويربيه ، مستقر العقل ، مطمئن النفس ، حر الإرادة ، عزيزًا شريفًا ، طامحًا إلى الملأ الأعلى متصلا به ، سليم التكوين ، مستقيم الأخلاق ، مدفوعًا بطاقة المعرفة المفطورة في عقله وبطاقة التوحيد المركوزة في نفسه الماثلة في الكون أمامه لاستكشافه وعمارته هو الحضارة والنقلة في مسيرة البشرية الهائلة أم وسائط اللهو وتقنيات الحروب؟

* * *